موت قارع الأجراس

محمد جبريل

موت قارع الأجراس

تأليف
محمد جبريل

هنـــداوي

موت قارع الأجراس

محمد جبريل

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٢ ٣٣٩٣ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ٢٠٠٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ محمد جبريل.

المحتويات

الوحدات	٧
موت قارع الأجراس	١٣
الكسوف	١٩
العنكبوت	٢٧
البيرق	٣٥
الزيف	٤١
الخيمة	٤٣
العرَّاف	٤٥
سندس	٤٧
القرصان	٥٥
البيت الفرنسي	٦١
ونس	٦٧
القنديل	٧١
الأميرة والراعي	٧٣
الأذان	٧٥
الثأر	٧٧
الرؤية	٧٩
القاضي	٨١
الخَواء	٨٣
خطأ	٨٥

المترو ٨٧
ومضات منسية ٨٩
بيت في الضاحية البعيدة ٩١
أغنية للزمن القديم ٩٣

الوحدات

ما كِدتُ أفتح الباب الزجاجي حتى لطمني هواءٌ ثلجي، أغلقتُ الباب وانسحبتُ إلى الداخل.

كنت قد أعددتُ نفسي لمغادرة الفندق فوق الجبل، والنزول إلى عمَّان؛ التمشِّي في الشوارع المنحدرة ومشاهدة الدكاكين والأبنية التي تغيب ملامحها في أسفل.

أعدْتُ النظر إلى المدينة من وراء الباب الزجاجي، بَدَت المرئيات ضبابيةً بتكثُّف البرودة على الزجاج، بينما الجوُّ — ربما من المكيِّفات — مقبولٌ في الداخل. الجبال قممٌ فسيحة، تتسلَّقها البيوت الصغيرة. تكوَّمتْ؛ فلا تبين الشوارعَ المؤدِّية إليها، تكتسي بغِلالةٍ من البرَد الثلجي، تشفُّ الغِلالة حتى تغيب في الطُّرق والميادين والبنايات.

لزمتُ الفندق في أثناء الليل. النجفةُ الهائلة تدلَّتْ من وسط السَّقف، عكَسَ تداخُل زجاجها الملوَّن أضواءً وظلالًا تشابكتْ، وتقاطعتْ على الأرض والجُدران. الأضواء الخافتة غيرُ المرئية، تسبح في أركان البهو الواسع، الجدران كُسيت بالخشب المَطليِّ، وزُيِّنت بحوافَّ بلونِ الذهب، وثمَّة مواضع زُينت بالرسومات والزخارف الجصِّية ونُقوش الخزف ومُعلَّقات السَّجاد والنَّسجيَّات. الأرضيَّة من الرُّخام الأسود، تتخلَّله تشابُكاتٌ من الخيوط البيضاء، تتباعَدُ في أرجاء البهو طاولاتٌ صغيرة من الأَبنُوس والصدف ... وتتناهى موسيقى خافتةٌ من موضعٍ لا أتبيَّنه.

ثم صعدتُ إلى حُجرتي المطلَّة على جبل عمَّان؛ أتأمَّل — من وراء النافذة الزجاجية المغلَقة — تناثُرَ الأضواء في مساحاتِ الظُّلمة.

ساحة الباصات ...

حدَّد لي الموعد من التاسعة إلى العاشرة صباحًا، البرد أقلُّ قسوة من أعلى الجبل، لمحتُه وهو يتفحَّصني، كأنَّه يفتِّش عمَّا لم أتبيَّنه! ضمَّ أصابعه على ياقة السويتر القطني؛ يتَّقي البرد. خمَّنتُ أنَّ مرَحَه الظاهر غِلالةٌ تُخفي وراءها حُزنًا يحاول كِتمانه. بدا مسكينًا بقامته الضئيلة، وشَعره ووجهه الطويل النحيل المهوَّش، وعينَيه القلِقَتَين، والشعيرات الخشِنة النابتة في ذقنه.

الشاحنات المبرِّدة تفتح أبوابها. العمَّال ينقلون إليها الفاكهةَ في صناديقَ خشبيةٍ أو كرتونية، وهديرُ المحرِّكات يختلط بالنداءات والصيحات وعبارات البيع والشراء والفِصال، وتلاغُط الإذاعات، والسماء ملبَّدة بغيومٍ تشِي بقُرب سقوط المطر.

قال: هذه الشاحنات تنقل الخُضَر والفاكهة إلى دول الخليج.

ثم وهو يحاول التغلُّب على البَرْد بالنفخ في يدَيه، وفَرْكهما: فكَّرتُ في أن أستقلَّ واحدةً إلى خارج الحدود.

قلتُ في دهشة: لن تظفر بغير اكتشافِ موقفك.

تنهَّد ...

– يا ريت!

– ستُعيدك مصرُ على أول طائرة.

وهززت رأسي: دوَّخيني يا لمونة.

تعرَّجَت الشوارع، وصعدتُ، وهبطتُ. بدا المشهد — في الشوارع التي تتخلَّل البيوت — مختلفًا عن الذي رأيتُه في وقفتي خلْفَ نافذةِ الفندق. الْتقطتْ عيناي أسماء الشوارع والأبنية: شارع مأدبا ... شارع الملك طلال ... شارع السلط ... شارع بارطو ... مستشفى لوريلا ... شرطة البادية ... مستشفى الهلال.

لاحَظَ تأمُّلي لسُورٍ تبين من ورائه شواهد: هذا سُور المقبرة الإسلامية.

سِرنَا في الشوارع المتَّجهة إلى أسفل. تناثر البرَد الثلجي في تكويناتٍ على اتساع المدى. أهملتُ نظراته المتلفِّتة، ووضع جانبَ راحته على وجهه كأنَّه يُخفيه.

أشرتُ إلى المبنى المتعدِّد الطوابق. يحتلُّ ناصيةَ شارعَين؛ اجتذبتني الواجهة بتصميمها وألوانها ونوافذها المغلقة، المُسدَلة الستائر.

– فندق؟

وهو يتلفَّتُ — بتلقائية — حوله: إنَّه مبنى المخابرات.

وقرَّب يده من فمه، وراح ينفُخ في أصابعه المضمومة: قِيلَ لي إنَّ مَن يريد السفر إلى الخارج؛ لا بدَّ أن يمرَّ عليه أولًا.

الهدوء في صوته وتصرُّفاته، لا يشي بأنَّ الطُّرق مسدودة. ذلك ما بدا لي. ظللتُ صامتًا، وإنْ أومأتُ إليه لكي يواصل كلامه.

– المشكلة أنَّه لا يمكنني الإقامة في عمَّان، ولا أستطيع العودة إلى القاهرة.

وأخَذَه انفعال: فكرتُ مرَّةً أن أركب سيارةً أقتحم بها الحدودَ إلى فلسطين ... إن قُتلتُ فسأُقتل في وطن ... وطني.

زاد في تألُّمي أنِّي أيَّدتُ فكرةَ السفر إلى الأردن.

حين تردَّدَ في الموافقة، نصحتُ بالسَّفر؛ يحقِّق عائدًا يعود به ليبدأ مشروعًا يخصُّه، ويستقر.

– لم أكُن أعرف أنِّي إذا لم أعُد قبل انتهاء مدَّة الوثيقة ... لن أستطيع العودة.

– لماذا لا تحصل على وثيقة سفَرٍ أردنية؟

– حاولتُ ... رفضوا.

– لماذا؟

خنَقَ الانفعال صوته: رفضوا.

– لو أنَّك جدَّدتَ الإقامة في موعدها؟

رفع عينَيه في تثاقُل: رفضَت الشركة هنا سفري. ظلَّ الرفض معلَّقًا حتى انتهى موعد التجديد. لمَّا طلبت الشركة وثيقةَ إقامةٍ مصرية مجدَّدة؛ كان كلُّ شيءٍ قد انتهى.

لأنه يكبُرني بعامَين؛ فقَدْ لعبنا في الشارع، ودخلنا المدرسة نفسها. واصلتُ دراستي في الجامعة، بينما عَملَ عند ميكانيكي سيارات في الشارع الخلفي. ظلَّتْ صداقتنا على حالها، يهمُّني أن أراه؛ نتسكَّع في الشوارع، نجلس في البيت، أو في المقهى، نشاهد مباريات كرة القدم، نتردَّد على السينما. لم أفطن إلى مشكلةِ وثيقة الإقامة إلا عندما لمحتُها على الكومودينو، ونحن نلعب الكوتشينة على طرَف السرير.

– بطاقتي تختلف؟

– هذه ليست بطاقة ... إنها وثيقة إقامة.

– لماذا؟!

– لأني فلسطيني ... أنت تحمل بطاقة، وأنا أحمل وثيقة إقامة.

حدجتْه بنظرةٍ متسائلة: أنت في مصر من قبل ولادتي؟

– لكنني أتبع أبي ... وأبي يحمل وثيقة إقامة منذ هاجرنا إلى مصر.

– زمان؟

– زمان.

– ولماذا لا تحصل على الجنسية المصرية؟

أشاح بيده: أسئلتُك كثيرة.

قال لي إنَّ ما يشغله الآن، هو أن تستقرَّ حياته، فلا يلاحق؛ مجرَّد أن يعلو رأسه سقفًا، وتحيط به جُدران لها نافذة، حتى لو كانت نافذةٌ ذات قضبان. وقال إنه يعاني من التلفُّت لأقلِّ صوت، ويعطي تشكُّكه في النظرات التي يلتقي بها.

قلت: هل تظنُّ أنَّك ستظلُّ العمرَ مختفيًا؟ ... غدًا يُلقُون القبضَ عليك!

– لا يهمُّ.

– ألَا تخاف السجن؟

– هو مكانٌ للإقامة.

– لن تظلَّ فيه إلى الأبد ... سيُرحِّلونك.

اختلجتْ شفتاه: إلى أين؟

– لا أعرف ... لكنَّهم لا بدَّ أن يدفعوا بك إلى أول طائرة.

في لهجةٍ مستخِفَّة: سأصبح إذن مواطنًا عالميًّا؛ فليس معي تأشيرةُ دخولٍ إلى أي بلد!

– تغيظني البساطة التي تتعامل بها.

لوى الضِّيق ملامحَ وجهه: هذا ما تتصوَّره ... قتلني الإحباط والخوف.

قلت: ربما استطعتُ أن أسافر بك إلى لبنان أو سوريا. لكن ... هل تستطيع أن تحيا بلا جواز سفَرٍ ولا أوراقٍ تُثبِت شخصيتك!

أشار بتأثُّرٍ إلى البيوت من تحتنا: هذه الورقة ... هذا الطَّير ... هذا الكلب.

وهزَّ قبضته: حتى الحشرات، تستطيع أن تعبُر الحدود بلا أوراقٍ ولا جواز سفر.

بدا كلُّ شيءٍ كحُلم، أو كابوس، أَلِفَ الطرقات؛ أهلًا وأصدقاءَ وأصحابَ عملٍ. فاجأتْه السِّحَن التي أربكتْه صرامتها. أجاب عن أسئلةِ الضابط ذي الزِّي المدني في الحُجرة المغلقة، ثم اقتاده أصحاب السِّحَن الصارمة إلى عربة لوري مغلقة، إلا من نافذتَين صغيرتَين من الحديد، مزدحِمة بالأنفاس والعَرَق.

صعدنا إلى سوقٍ كبيرة للخُضَر، اصطفَّ فيها، وتناثرتْ عرباتٌ صغيرة وأجْوِلَة وصناديق. تعالَت النداءات والصيحات والمساومات والشتائم، وروائحُ العطارة والبخور والدُّخان المحترِق وشِواء اللحم، وثمة كلبٌ تشمَّم عمودَ نور، ثم رفَعَ إحدى ساقَيه في اتجاهه ...

قلتُ لنظرته المتسائلة: متى نصل إلى مخيَّم الوحدات؟

– نحن نسير فيه.

– وأين الخِيام؟

أطلَقَ ضحكةً من أنفه: المخيَّم مجرَّد تسمية. إنَّه حيٌّ سكني مثل الأحياء التي تُحيط به: التطوير الحضاري، والدبابية والأشرفية، والشرق الأوسط، والقويسمة.

قال لي إنَّه ينزل ضيفًا على أُسرةٍ فيه. الشوارع الواسعة تختلط بالحارات الضيِّقة والأزقَّة التي تنتهي بجدارِ بيت، أو حائط مسدود، أو مساحات من الخُضرة، المآذن والقِباب والبنايات المرتفعة تلاصقها، وتقاربها بيوت حجرية بيضاء من طابقٍ واحد، تمتدُّ في المساحة الواسعة. الشرفات ذات القواعد الرخامية المتجاورة في أشكال منسجمة، تستند إلى دعاماتٍ على شكل مقرنصات وتماثيل لبَشَر وحيوان من الرُّخام أو الجبس، صُفَّ على بعضها أُصُص نباتاتِ الزينة. النوافذ من الضُّلَف الخشبية، أو مساحات الزجاج. الأبواب الحديدية السوداء، غُطيتْ واجهاتُها بصفائح النحاس المنقوش في صور ورودٍ وأغصان متعرِّجة وأوراق. الجدران ملوَّنة بشعارات ونداءات وإعلانات عن بضائع وآياتٍ قرآنية وعبارات مشطوبة، وصور لعرَفَات وعبد الناصر وجيفارا. التَّنْدات ظلَّلَت الدكاكين التي كوَّمت بضائعها أمام الأبواب. الباعة يفترشون الأرصفة وجوانب الطريق؛ يبيعون القمصان والجوارب والشباشب والمناشف ولُعَب الأطفال. المارَّة يرتدون البِدَل والبنطلونات الجينز والسويترات والحطة والعِقال.

أشار إلى بائع زهورٍ يتقافز بين السيارات في مُفترق الطُّرق: هذا ما فعلتُه في البداية، ثم عرفتُ أنَّ الجنود يقفون عند الإشارات الضوئية.

وأطرق وهو يعَضُّ شفته السُّفلى: قبل الذي أُعانيه الآن، لم أكُن أعرف أنِّي فلسطيني.

ولجأ إلى تعبيرات يدَيه: لم يكُن ذلك في بالي.

ووشى صوتُه بتأثُّر: إنَّهم ناسٌ طيِّبون ... لكنَّهم ليسوا أهلي.

– أنت فلسطيني؟

وهو يحكم ياقة السويتر إلى صدره: هذا ما تقوله وثيقةُ الإقامة؛ لم أغادر القاهرة منذ ولدتُ إلا هذه المرة!

واصلنا السَّير حتى بلغنا خطَّ السكة الحديد في نهاية المخيم.

بدا الرجل مختلفًا عن الآخرين في شكله وملامحه؛ وجهٌ أبيضُ مُشرَبٌ بحُمرة، وأنفٌ مستقيم مدبَّب، وحاجبان بارزان كأنَّهما يفصلان جبهته عن بقيَّة وجهه، وعينان زرقاوان واسعتان يرتدي فوقهما نظَّارة طبيَّة ذات إطارٍ معدني أبيض، وثمَّة عروق زرقاءُ تتقاطع تحت البشرة.

– هذا موظَّف وكالة الغوث.

– الغوث؟!

– هذا هو اسمها ... وكالة غوث للاجئين ... وهو وسيطٌ بين سكَّان المُخيَّم والوكالة.

وانتزع ضحكةً مبتورة: مَن يُصادقه يضمن كمياتٍ أوفر من التموين والمساعدات الاجتماعية.

قلت مُداعِبًا: ولماذا لا تُصادِقه؟

– لن أظلَّ العمرَ هنا.

ورفَّتْ على شفتَيه ابتسامةٌ مهزومة: أعرف أنَّ إقامتي هنا لن تطول.

ثم وهو يهدِّئ بيده خصلةَ شَعر مُتَطَايرة: لا بدَّ أنْ أترك المخيَّم إلى القاهرة، أو إلى حيث لا أعرف.

هبطنا من المخيم إلى قلب المدينة. عرفتُ من تكرار اسم الأشرفية على واجهات الدكاكين، وعلى واجهة المستشفى، أنَّ هذا هو اسم الحي.

غلبتْني الحيرة؛ فلم أدرِ كيف أتصرَّف؟ تزاحمَت الأفكارُ في ذهني، وتقاطعَت الكلماتُ، وارتبكتُ؛ لم أجِد الكلمات التي تعبِّر عن مشاعري، ثم دَاخَلَني شعورٌ بالتبلُّد، لم أستطِع معه التفكيرَ في أيِّ شيء، وتشاغلتُ بالنظر إلى الأرض.

– سأتدبَّر الأمر ... ثم أعود إليك.

بدا عليه ذهول: هل تتركني؟

أشَحْتُ بوجهي بعيدًا؛ فلا أُواجه نظراته: مؤقَّتًا ... نلتقي بعد غدٍ في نفس المكان ونفس الموعد.

قال في نبرةٍ تذلُّل: لم أصدِّق أنَّك جئتَ، وأنِّي رأيتُك!

– ستراني ثانيةً ومعي حلٌّ.

كان آخر رؤيتي له وهو يتابعني بنظرةٍ ثابتة، غاب عنها المعنى المحدَّد.

موت قارع الأجراس

ترامى دويُّ الانفجار من ناحية الباب الرئيسي لمجمع الكنيسة. خمَّن أن الاقتحام بدأ. اختلط هديرُ جنازير الدبابات وطلقات الرصاص والصرخات والتحذيرات من داخل الكنيسة. امتدَّت يداه — بتلقائية — في وقفته داخل الطابق الأول من البُرج. تقلَّصت على الحبال، تهزُّها. علا قرعُ الأجراس. توالت حركةُ يدَيه بآليةٍ سريعة، يريد أن يُطلق الصوت إلى آخر مداه، أبعد حتى من آفاق البحر.

كان قد ترك — بالحدس — وقفته على سطح كنيسة القيامة. اعتاد التنقُّل بين القيامة والمغارة والمَهْد، وكلِّ الأماكن التي أضاءت بالكلمات السماوية. حتى الصوامع والمَفَاوِز التي نحتتْ في باطن الصخر، اعتاد التردُّد عليها، يُسلم نَفْسَه إلى التراتيل والأناشيد الكورسية القديمة والترانيم السحرية، الغائبة المَصدر.

لم يكُن هذا هو الموعد الذي أَلِفَ فيه الانطلاق إلى بيت لحم، بعيدًا عن الوقفة المتأمِّلة للقدس؛ المسجد الأقصى، وقبَّة الصَّخرة، وبركة السلطان، وقلعة النبي داود، والتلال السبعة، والبنايات العالية، والبنايات الشبيهة بالقلاع، والأسواق، والميادين، والطرق المتعرِّجة، والمتقاطعة، وأشجار الصنوبر، والأشجار المتداخلة كغابات صغيرة، والأفق الذي يبدأ فيه شاطئ البحر، الْتقاء الأرض بامتدادات المياه. شيء كالرائحة، يشعر به، يتصوَّره، وإن لم يرَه.

تحرَّك — بقوةٍ لم يعهدها في نفسه — تُظِلُّه زُرقة السماء. وفي أسفل، تترامى أشجار الكرمة والزيتون، والتِّلال المدوَّرة من كلِّ الجهات، وحقول القمح والشعير.

راعه — أسفلَ الجبل المطلِّ على مجمع الكنيسة — دباباتٌ في نواصي الطُّرق، وجنودٌ يقتحمون أبوابَ البيوت والمحالَّ المُغلَقة، وفُوهاتُ بنادقَ تطلُّ من النوافذ، وتناثرُ جثثٍ في مواضعَ متباعدة.

أخطأ — باللهفة — موضعَ نزوله. كاد يسقط على قمَّة المِئذنَة في الجامع القريب. فطِنَ إلى ما تحته دفَعَ نفسه ناحيةَ مجمع الكنيسة. نزل على السطح المُلاصِق لبرج الكنيسة ذي الطوابق الثلاثة.

تناهتْ — من أسفل — أصواتٌ تختلف عن الألحان التي اعتاد تصاعُدَها من الأرغن والصنوج وأداء المرتِّلين. يتردَّد صداها في الأسقف العالية والجدران المزدانة بالنقوش ولوحات القِدِّيسين.

اقترب من السُّور الحَجَري. أطلَّ على العشرات من الرِّجال والنساء والأطفال، يتدافعون نحو الباب الحديدي لساحة الكنيسة. يَطرُقونه، ويتصايحون.

أوْمَأ الأب لوقا بما يعني الإذن لهم بالدخول.

هزَّ رأسه للهمسة المحذِّرة: من بينهم رجالٌ مسلَّحون.

وقال في لهجةٍ باترة: مَن يحملْ سلاحًا يَترُكْه قبل أن تأذنوا له بالدخول.

نزل إلى داخل الكنيسة. في مواجهة الباب الرئيسي؛ صورةٌ من الفسيفساء تمثِّل سجودَ رجالٍ يرتدون زيَّ المجوس، يَسجُدون تحت قدمي السيد المسيح.

اندسَّ وسطَ المجموعات المتناثِرة في القاعات والحجرات المفتوحة والردهات الطويلة المتقاطعة. امتلأت الكنيسة بما لم يكُن يتصوَّره. الطوائفُ الثلاث: الفرنسيسكان، الروم الأرثوذكس، الأرمن الأرثوذكس، هي — وحدها — تتردد على الكنيسة. يلتقَّى الزُّوار برهبانِ الطوائف الثلاث. يُؤدُّون القدَّاس، ويجلسون للاعتراف، ويطلبون النصيحة والبركة. ما يُشبه الذهول، وربما الخوف، كسا الملامح بهدوءٍ متوتِّر. لم يكُن يتصوَّر مثل هذا العدد في مجمع الكنيسة، يدخل إليها فلا يغادرها. يؤدِّي الناس قدَّاسَ الأحد، وينصرفون. يستقرُّون على الأرائك الخشبية، يخفضون الرُّءُوس، ويشبكون الأيدي على الصدور. والشمامسة الصِّغار يرتِّلون الترانيم، ويهزُّون مجامر البخور. تُمازِج القراءة من الكتاب المقدَّس والأرغن والصنوج والأضواء والظلال والزجاج الملوَّن. والشموع فوق الشمعدانات وفي الأيدي والصلوات والاعتراف. وتضوُّع البخور ذي الرائحة الطيِّبة. أكثر من ثلاثمائة امتلأت بهم — بلا توقُّع — قاعات الكنيسة وحجراتها. حتى الردهات والمطابخ تناثَرَ فيها مَن لا يعرفهم، ولا الْتقى بهم في الكنيسة من قبل. اعتاد سِحَن البَشَر في الكنائس والأديرة. وفي المدينة؛ كنيسة القديسة كاترينا وكنيسة مغارة الحليب، ودير القديس أوغسطين، ودير القديس جيروم، ودير مار سابا، ودير القديس ثيوذوسيوس، والأسواق والميادين والشوارع

الضيقة والبيوت ذات الطوابق القليلة والنوافذ الخشبية المفتوحة. وكان يتعرَّف إلى الوجوه التي تتطلَّع وتتأمَّل في لحظاتِ الزيارة الأُولى.

نزل في الدَّرَج إلى قاعةٍ صغيرة، تتوسط أربعَ حجراتٍ مغلقة. ثلاثة رجال، أخفت رءوسهم المحنيَّة ما إذا كان المستلقي على الأرض مصابًا أم ميِّتًا.

وقَفَ الأب لوقا في بداية الدرج، بقامته الفارعة، ولباسه الكهَنُوتي، وابتسامته المُشفِقة: هل هو متعب؟

اتَّجه أحد الرجال الثلاثة ناحيتَه بتعبيراتٍ متألِّمة: أصابتْه رصاصةٌ في ساقه.

قال الأب: لفُّوها بضمادةٍ؛ حتى تتحسَّن الظروف.

ثم وهو يشير إلى أعلى الدَّرَج: الصيدلية في داخلِ الحمامات.

دخَلَ من المدخل الصغير، الضيِّق. يضطر الداخل إلى الانحناء وهو يعبُر الإيوانَ البسيطَ إلى صدرِ الكنيسة. أربعة صفوف من الأعمدة الحجرية الوردية اللون. كلُّ صفٍّ أحد عشر عمودًا، والتاج كورنثيُّ النُّقوش، له صليبٌ بارز، وفوق صفَّي الأعمدة الجانبية جِداران خشبيَّان، تعلو كلَّ جدار عشرُ نوافذ، تُضيء الداخل بمساحات من الضوء. الأرض مفروشةٌ بالموزاييك. وثمَّة على الجدران صورٌ لميلاد المسيح، وليوحنا المعمدان يعمد المسيحَ في نهر الأردن، وللعشاء الأخير.

كانت الملامح والتصرُّفات والكلمات المرتبكة؛ تُنطق بالخوف والتوقُّع. السيدة التي تحمل الطفل — وحدها — أظهرتْ ما في نفسها: هل يُنقذوننا؟

وجهها خلا من التزويق. وعيناها الواسعتان العسليتان، لا تكادان تستقرَّان على شيء. ترتدي عباءةً من الكتان الأسود، طُرِّزت حواشيها بالدانتيلا البيضاء.

قال الأب لوقا في ابتسامته المُشفِقة: لا تحاولوا التعرُّف على ما يجري خارجَ الكنيسة، ولو من النوافذ.

– إنهم يُطلقون الرَّصاص على كلِّ شيءٍ يتحرَّك.

نزع الرجل الكوفيَّة من حول رأسه: هل نظلُّ داخل الكنيسة؟

ثم وهو يضَعُ الكوفيَّة على ظَهْر الكرسيِّ: ماذا نفعل إذا نَفدَ الطعام؟

الْتفتَ الأب إلى الناحية المُقابِلة، فلا يرى الرجل تعبيراتِ عينَيه: لا تَسْتَبِق الظروف.

قالت السيدة: لن يتركها أهلُنا.

واتَّجهتْ بنظرةِ الخوف إلى الرجال الواقفين: لن يتركونا.

قال الشابُّ ذو الندبةِ الطولية في وجهه، وهو يتَّجه بنظرةٍ شاردة إلى الصليب الهائل في مواجهةِ قاعة الصلوات: لو أنَّهم حاولوا الاقتحام؛ فلن يجِدُوا أحياءً.

نطق الفزعُ في عينَي السيدة: الاقتحام مستحيل ... يقتحمون بيتَ الله؟

ثم في صوتٍ يُخالطه نشيج: هل يُنقذوننا؟

قال الشابُّ: مَن تقصدين؟

وهي تزيد من احتضانها للطفل: أهلنا ... هل يُنقذوننا؟

علا صُراخ الطفل. تلفَّتَت السيدة في حيرة. أدرك الرجال أنَّها تريد أن تُرضعه؛ مضوا إلى خارج الحُجرة، وأغلقوا الباب.

نزل الدرجات الرُّخامية إلى مغارة المهد، أُضيئت العتمة بقناديلَ كثيرة. معظم الجدران مكسوَّة بالرخام، والسقف من الصخور الطبيعية. وثمَّة الموضع الذي ولد فيه المسيح، يُقابله تجويفٌ في الصَّخر، ينزل ثلاث درجات. اعتاد الاسترخاءَ في مدخل المغارة. يهَبُ سمعَه لأصواتِ السماء، والأنغام العلويَّة، والكلمات المضيئة، وتضوُّع الأسرار. يتخيَّل قُدومَ السيدة العذراء ويوسف النجَّار إلى بيت لحم. جاءها المخاض؛ فنسيا ما قَدِما من أجله: تسجيل اسمَيهما في الإحصاء الذي أمَرَ به القيصرُ أغسطس. لجآ إلى المغارة القريبة؛ لتلِدَ مَن بذَلَ نَفْسه فِديةً عن الآخرين.

مضى في الطريق نفسه الذي يشهد احتفالاتِ عيد الميلاد. تتعالى من كنيسةِ القِديسة كاترينا أصواتُ الترانيم والتراتيل. الدورة الثابتة من الكنيسة إلى المغارة، وتعود ثانية.

تناهتْ أصواتٌ من جُرن العمودية. الأرض من الرُّخام الأبيض، والسَّقف يستند إلى ستَّة أعمدةٍ ضخمة، والأضلاع مثمَّنةٌ، منحوتةٌ من الحَجَر الوردي.

انتزع العجوز ضحكةً: كنتُ أصفُّ البضاعة على الأرفُف عندما وصَلَ الجنود.

في حوالي الخامسة والستين. يميِّزه حاجبان كثيفان متصلان من أعلى الأنف، ولحيةٌ طويلة مشعثة، وعيناه ملتمعتان كأنَّه يهمُّ بالبكاء.

أتأمَّل وقْع كلماته في أعين المتناثرين على الكراسي في قاعة الطعام الصغيرة. مائدة خشبية حولها اثنا عشر كرسيًّا. على الجدار الأيمن نافذة مغلقة من الزجاج الملوَّن، يقابلها صورةٌ كبيرة للعذراء تحمل وليدها، ويتوسط الجدار — قبالة الباب — صليبٌ هائل من الخشب.

أضاف الرجل، ربما ليبدِّد الصمت: دكَّانتي في أول الطريق إلى بيت ساحور.

واستعاد ضحكته الشاحبة: هذه المرَّة فقط أبيع لَكُم الكلام.

ظلَّت الأفواه على صمتها، والأعيُن في شرودها الحزين. لا محاولة للمشاركة. ضرَبَ جبهتَه بباطن كفِّه كالمتذكِّر: ماذا يفعل الأولاد؟

وخالَطَ صوته نشيجٌ: سيفاجَئُون بغيابي عن الدكَّان المفتوح.

لاحَظَ قدرته على التنقُّل من الضحك إلى البكاء. تدمع عيناه إذا ضحك، وتدمعان إذا غلبه البكاء. اختلط الأمر عليه. لم يُحسن التخمينَ إن كان العجوزُ يضحك أو يبكي.

قال الرجل ذو البشرة السمراء، المُصطبِغة بلونٍ نُحاسي: لن يُتيح لهم الجنود أن يتركوا البيت.

غمغَمَ بدعواتٍ للشابِّ الذي هزمه الصَّرع. لم يبلغ العشرين. أنفه الصغير لا يتَّسق مع اتساع عينَيه، وغِلظة شفتَيه، واستدارة وجهه. سبَقَه إليه القريبون، أحاطوا بالشابِّ وهو يتلوَّى على الأرض. زاغتْ عيناه، وغلَبَ البياض عليهما، واعوجَّ فمه. ثم انتفض. تعاقبت الرجفات، وصرخ. تخشَّب، وتشنَّج، وطفح اللُّعاب كالرَّغاوَى من جانبَي فمه. بدا المُلتفُّون حوله — ثلاثة رجال وسيدة — فاقدي الحيلة. مدَّ يده دون أن يفطِنوا. مسَّدَ رأسَ الشابِّ؛ فهدأ.

قال الأب لوقا: هل هو الخوف؟

هزَّ الرجل البدين رأسه دلالةَ النفي: لا صلة لمرضه بما يحدُث الآن!

قال خادم الكنيسة: هل يمكن نقله إلى المستشفى؟

وخنق الانفعال صوته: مستشفى الحسين قريب.

قال الأب جورج: الجنود على الأبواب ... لن يأذنوا لأحدٍ بالدخول، وإن طالبوا بخروج الجميع.

لاحظ تقارُب الرءوس لشبَّان ثلاثة، يرتدون ما يشبه الأفرول. همس أوسطُهم وهو يُشير إلى جهةٍ غير محدَّدة: هل نأخذ السلاح ثانية؟

قال الشابُّ ذو النَّظَّارة الطبيَّة: لماذا؟

– ربما حاول الجنود دخول الكنيسة.

– لن يحاولوا ... هذه كنيسة.

قال الشابُّ ذو الشَّعر المهوش: اشترط الرُّهبان تسليم الأسلحة ... علينا أن نحترم إرادتهم.

قال الشابُّ في الوسط: فكرتُ أن نُدافع عن الكنيسة.

قال الشابُّ ذو النَّظَّارة الطبيَّة: دع الآباء يتصرَّفون!

تنبَّه على دوي الانفجار. تبعه أصواتُ دبابات. تنقَّل بين جوانب السطح، يحدِّق في تفرُّعات الشوارع المُفضية إلى الكنيسة. عَمَّق اقترابُها من الصَّمت السادر. البيوت والدكاكين والنوافذ أغلقتْ أبوابها. حتى الأسطح خلَت من الحياة، وخلَت المنطقة حول الكنيسة من المارَّة والجالسين، والمُطلِّين من النوافذ، والواقفين خلْفَ الأبواب. اجتذبهم الخوف من القنَّاصة المتناثرين فوق الأسطح، ووراء أَخِصَّة النوافذ المغلقة.

اختلط الصياح والصراخ وهدير الدبابات وصوت الرصاص. انسلَّ — بجسده — إلى برج الكنيسة. امتدَّت يده — في وقفته — إلى الحبال المتصلة بالأجراس أعلى البرج. توالى هزُّه للحبال. عَلَت الأجراس، واتَّسع صداها في فضاءاتٍ بعيدة. زاد من هزِّ الحبال، فامتدَّ قرعُ الأجراس. وضَعَ قوَّته فيما يفعله. حاول التخمين. الدبابات حول الكنيسة، والجماعات الهاربة من القنَّاصة، والرُّهبان، والقساوسة، والشمامسة، وغياب قدَّاس الأحد. ترِدُ نواقيس الكنائس في امتداد إلى المُدن والقرى. يرتفع الأذان — كما حدَثَ في مرَّاتٍ سابقة — من الجوامع وأسطُح البيوت. يتنبَّه مَن تختفي أو تُسحب، في أسماعهم صيحات الاستغاثة؛ فيتصرَّفون.

لم يفطن — في انفعاله — إلى الجدار المفتوح في جانب البرج، ولا إلى القنَّاصة الذين رأوا مَن يحرِّك الأجراس، فصوبوا إليه رصاصهم.

٧ / ٤ / ٢٠٠٢م

الكسوف

لم تتصوَّر أنَّ الكلام سيأخُذك. تروي تجربتك الأدبية، تُجيب عن أسئلة الأدباء المُلتقِّين حول المائدة المستطيلة الطويلة. تستدعي مدرسة البوصيري الأوليَّة ومكتبة أبيك وشاطئ الأنفوشي وميدان المساجد وصحن أبو العباس والموالد والأذكار وصيد العصاري وأهازيج السَّحر، وأول تعرُّفك إلى نجيب محفوظ في خان الخليلي، ونصائح يحيى حقي، وعشق الرحلات في المكان المصري.

هلَّل علي عُقلَة عَرسان رئيس اتحاد الكتاب العرب من وراء مكتبه: كنَّا نتوقَّع اعتذاركما بعد الرحلة المتعِبة إلى الجولان.

بدا كسوفُ الشمس مفاجأةً سخيفة، لم تتصوَّرها، ولا أعددتَ نفسك لها. هل تنفِّذ التعليمات فتلزم الفندقَ طيلةَ اليوم الوحيد في دمشق؟

موعد الغَّدوة في الثامنة مساءً. تهيَّأتما للحياة — طيلةَ النهار — خارج الفندق. دارى عبد الله أبو هيف ابتسامةً مشفِقة: نصيحتي أن تلزما الفندق ... كسوف الشمس من الظُّهر إلى العصر.

اجتذبك إليه تلقائيةٌ وبساطة، بما قد يخالف انشغاله بالنقد والتدريس في الجامعة. يتمازج في عينَيه المكر والطِّيبة، ووجهه مُضِيء بابتسامةٍ طفولية. يُحسن الإنصات. يُعطي انتباهه دون أن يقاطع بكلمةٍ أو إشارة. يُنصت فقط، لا يبدأ في الكلام إلا بعد أن ينتهي محدِّثه من كلامه.

أضاف في نبرةٍ تشي بالتأثُّر: الناس في إجازة.

قال أبو ضاحي: كلُّ الأماكن مُغلَقةٌ فترةَ الصَّباح ما عدا المستشفيات.

أبو ضاحي الصعيدي استقبَلَنا بسيارة الاتحاد خارجَ المطار. الصعيديُّ لقَبُ العائلة.

– هل أنت من الصعيد؟

– أجدادي رحلوا إلى فلسطين، ثم غادروها في التهجير.

في حوالي الخمسين. قامةٌ طويلة ممتلئة، وإن لم تخلُ حركات جسده من رشاقة. تتخلَّل الرأسَ شعيراتٌ بيضاء. ملامحه مألوفةٌ. يَهَبك إحساسًا بأنَّك الْتقيتَ به من قبل. وجهٌ مستدير، وعينان بُنِّيتان لامعتان تنظُران من تحت حاجبَين كثيفَين. اسودَّتْ أسنانه؛ فخمنت أنَّه يُكثر من شُرب الشاي. دائم المَسْح بأصابعه على طرفَي شاربه المُتهدِّل على الفم. يميل إلى عباراتِ التورية والكناية والإيماء، ويلجأ إلى إشاراتِ يدِيه وتعبيرات وجهه. ربما فهمتَ المعنى دون أن تصِلَك الكلماتُ واضحةً.

حدجتَه بنظرةٍ طويلة مُتسائلة: كسوفُ الشمس من الظُّهر حتى العصر ... هل نخرُج في الصباح؟

ضرب أبو ضاحي على صدره: تؤمر سيدي.

قلت: ليتك تصحبنا إلى الجامع الأموي.

أضاف يوسف الشاروني وهو يحرِّك عصاه: ونتسوَّق في سُوق الحميدية.

مضَت السيارة في الشوارع الخالية. مساحاتٌ متقاطِعةٌ من الصمت. الأبواب والنوافذ مغلقة، والستائر مُسدَلة، والسيارات واقفة على جانبَي الطريق، والمارَّة قليلون. حتى الأصوات ذابت في الصمت، فهدير محرِّك السيارة يصكُّ الأذن.

طالت الوقفة أمام باب الجامع الأموي. الساحة الصغيرة المتفرِّعة إلى شوارع المدينة، تخلو من الباعة والواقفين والمارَّة. حتى سوق الحميدية؛ يبدو كنفقٍ هائل، تُحيط الرمادية بالمرئيات في داخله.

قال أبو ضاحي: الجامع لم يُغلِق أبوابه أبدًا.

ثم وهو يلجأ إلى يدَيه في التعبير عمَّا يقول: ربما تفتح الأبواب بعد قليل.

تحرَّكت أشعة الشمس على حوائط الجامع؛ فتذكرتُما موعدَ الكسوف.

– سوق الحميدية أمامنا.

وترنَّمت بالأغنية: م الموسكي لسوق الحميدية.

وضَعَ أبو ضاحي راحته على صدره. أحنى رأسه، ورفَعَها: ولو!

أعلَنَ أبو ضاحي استعداده للدخول بالسيارة إلى داخل السُّوق. تخلَّى الشاروني عن اعتذاره بالتعب.

المحالُّ مغلقة، وعربات اليد غُطيتْ بالأقمشة، والأضواء الشاحبة تفترش مساحاتٍ صغيرةً متناثرة، والكنَّاسون يكوِّمون مخلَّفات الليلة الماضية، وبائع جواربَ دسَّ بضاعته تحت رأسه، وأولى وجهه إلى الحائط، وثمَّة بخورٌ يتضوَّع في المكان، لا يبين مصدره.

– قال أبو ضاحي: لو أنَّكم أطلتُم الإقامة يومًا واحدًا …

ثم وهو يُشير إلى شارعٍ متفرِّع من السوق: هناك مقهًى يسهر فيه الناس مع الحكواتي، يروي كلَّ ليلة حكاية الظاهر بيبرس بلهجةِ المصريين.

زوى الشاروني حاجبَيه بالدَّهشة: الحكايةَ نفسها كلَّ ليلة؟

– ما يرويه في ليلةٍ، يختلف في بعض التفاصيل عن حكاية الليالي السابقة.

عَلَت الأسئلة، واختلطت، وتشابكت. قلت: ما أكتبه يجِدُ منابعه — أحيانًا — في ذكرياتِ الطفولة والصبا، بالذات أيام إقامتي في حيٍّ بحري بالإسكندرية. قلت: أنا لا أتعمَّد أيَّ شيء، ولعلِّي ممَّن يفضِّلون أن يكتُب العملُ الإبداعي نَفْسه. وقلت: أنا أبدأ الكتابة وليس في الذهن سوى فكرةٍ قد تكون هُلامية، ثم يبدأ كلُّ شيءٍ في التخلُّق أثناء الكتابة. وقلت: إنَّ الفنَّ — مهمَا يُخلِص في تصوير الواقع — يظل أقلَّ واقعيةً من الواقع نفسه. وقلت: إني ممَّن يقدِّرون أن تكون للمبدع فلسفةُ حياة يعبِّر عنها في مجموعِ أعماله.

قال عبد الله أبو هيف: أذكُر أني تناولتُ هذه القضايا في كتبي … سأودعها الفندق.

الملل! … ملٌّ قاتل يحيط بك في الفندق. ويصعب عليك الخروج إلى ما كنتَ تتمنَّى التعرُّف عليه.

قال يوسف الشاروني: أصبح لتعبير النجوم في عزِّ الظُّهر معنًى.

همَسَ موظَّف الاستقبال بتحذيرٍ من إزاحةِ الستائر عن الأبواب الزجاجية المطلَّة على الشارع: التعليماتُ صارمة.

أسدلوا الستائر. سدُّوا أيَّ منفذ قد تتسرَّب منه أشعَّة الشمس. اكتفيتُما بمشاهدة التليفزيون. القنوات تنتقل بين المناطق التي تنتظر الكسوف. ما بدا صعبًا ومحمَّلًا بالأرقام؛ عرفتَه في تعدُّد الشروح والتعليقات: الكسوف يحدث عندما يقَعُ القمر في دورته من الغرب إلى الشرق حول الأرض، يقع بين الأرض والشمس، وتكون الأجرام الثلاثة على استقامة واحدة. تصبح الأرض إمَّا في مسقط ظلِّ القمر تمامًا فيكون الكسوف كليًا. تلتقي الشمس والقمر، يتطابقان كأنهما قطعةٌ واحدة. يحجب ظلُّ القمر ضوءَ الشمس، يتحوَّل النهار إلى ليل، وإمَّا أن تقَعَ الأرضُ في منطقةِ الظِّل القمرية فيكون الكسوف جزئيًّا. تحدَّث الشيخ في برنامجه الديني عن صلاة الكسوف. فضَّل أن تصلي في جماعة، وتسبقها خطبةٌ قصيرة، ويكون أداؤها بلا جماعةٍ ولا خطبة. حدَّدها الإمام أبو حنيفة بركعتَين مثل صلاة الجمعة، ويجوز فيها السرُّ والجَهر، ويُستحبُّ الإكثار من الاستغفار والتصدق. نقَلَ العالَم الحديث: «إذا رأيتُم ذلك الكسوف؛ فادعوا الله تعالى وكبِّروا وتصدَّقوا وهلِّلوا.»

توالت البيانات تحذِّر من التعرُّض للشمس في أثناء الكسوف، وعدم النَّظر إلى قُرص الشمس. تعليقات المذيعين، وشرح العلماء، وأطبَّاء العيون وأطباء الأمراض الجِلدية، وحذر تليفزيون الإمارات مواطني البلاد من رحلات البَرِّ في فترة الكسوف، ربما خرَجَت الزواحف السامَّة من جُحورها نتيجةَ انقلابِ النهار إلى ليل. غابت التحذيرات في آلاف الواقفين على الشواطيء وفي الخَلاء، والتجمُّعات التي ترقُب الحدَثَ عن قُرب يحدِّقون بأعيُنِهم أو بنظَّارات اشترَوها للمُناسَبة. واختارت جماعاتٌ الوقوفَ تحت ظلِّ الأشجار ومتابعة تأثيرات الكسوف على أوراقها. تباينتْ تعبيراتُ الفضول والترقُّب والقلق والخوف. أُعلن عن مبيعاتٍ للخرائط وأجهزة التلسكوب والنظرات الخاصة والقبَّعات وأطباق الصيني والميداليات والتيشيرتات، وأعدَّ مُزارِع أمريكي مواقعَ في أرضه يؤجِّرها لَمَن يريدون المشاهدة أفضل، وقال معلِّق صحفي: إنَّ ما يحدُث هو فرصةٌ طيِّبة للاحتفال بالألفية الثالثة، وقال عالِم دِين: على الناس أن يُراجعوا أنفُسهم وينتبهوا إلى أنَّ العالَم — ذات يوم — سينتهي، وقال المذيع كأنَّه لاحَظَ نظرتك المُتسائلة: هذه النظَّارات مخصَّصة لمشاهدة الكسوف ... اشترى الناس منها عشرات الآلاف، وأعلن تليفزيون العراق أنَّ الطائرات الأمريكية والإنجليزية قذفتْ بقنابلها — في فترة الكسوف — أحياءَ بغداد.

نقل تليفزيون القاهرة بيانًا للمفتي؛ حرَّم فيه النَّظر إلى قُرص الشمس من الواحدة حتى الرابعة بعد الظُّهر. حذَّر العالِم ذو النَّظَّارة المقعَّرة من خطورة أشعَّة الشمس — في لحظاتِ الكسوف — على العين والجِلد، وقال: إنَّ الكسوف لا يؤذي مَن ينظر إلى الشمس إذا كانت إحدى العينَين مغلقة، أو أنَّ الشخص يعانِي الحَوَل. أمَّا مَن يعانون قِصَر النظر، وينزعون النظارة الطبيَّة، فلن يتأثروا كثيرًا. ضعف البصر يُتيح لهم قوةَ التركيز. ونصَحَ طبيبُ الأمراض الجلدية بعدم ترك أجزاء من الجسد مكشوفةً؛ فلا تتعرض للاحتراق. وقال أستاذ الفيزياء الشمسية وهو يقلِّب في يده نظَّارة مشابِهة لَمَا يضعه الناس على عيونهم: هذه أشعَّة فوق بنفسجية. حتى النظَّارات الشمسية القائمة تخترق الشبكيَّة وتدمِّر مركزَ الإبصار ورجَّح خبراء الأرصاد الجوية أنْ تنخفض درجات الحرارة؛ لحجب أشعَّة الشمس عن الأرض.

شرَّقت الأسئلة وغرَّبت. قلت: الفنَّان غيرُ مطالَب — ومن السخف أن نُطالبه — بشرح أعماله. وقلت: في كلِّ عمل إبداعي ملمحٌ من شخصيةِ كاتبه. لا يتعمَّد إقحامه، لكنَّه يفرض نفسه — بصورةٍ أو بأُخرى — على المشهد الإبداعي. وقلتُ: إنِّي أجِدُ نفسي في الكثير ممَّا كتبت. وقلت: على الفنَّان أن يكون موصولًا بجذوره؛ لأنَّه لا حياةَ لشجرة بلا جذور؛ فهي

محكومٌ عليها بالموت سلَفًا وقُلت: أنا لا أحصل من الإبداع على المتعة وحدها، وإنما أحصل — في الوقت نفسه — على معرفةٍ أعمق بالحياة الإنسانية. وقلت: على المثقَّف أن يضحِّي دون أن ينتظر المقابِل، ولعلَّ المقابل يكون سلبيًّا من الجماعة التي يبذل نفسه تضحيةً لها.

قاطَعَ علي عُقلَة عَرسان توالي الأسئلة: أكثرتُم من الأسئلة عن التجربة الأدبية. اسألوا عن انطباع الزيارة إلى القنيطرة.

يتأكَّد حسن حميد من الطعام والماء. في حوالي الأربعين. قامة طويلة أقرب إلى النحافة. بدا صلَعٌ خفيف يزحف في مقدمة رأسه. له وجهٌ مسحوب، ونظراتٌ حادَّة، ولحيةٌ قصيرة مقصوصة، مهذَّبة. يحرص على الجديَّة؛ فكلماته قليلة، وملامحه يغيب عنها الابتسام. يعتزُّ بحصوله على الجائزة الأولى في الرواية من مسابقة نجيب محفوظ. حتى المناديل الورقية، حرص حسن حميد أن تكون داخلَ الحقيبة. وضع الحقيبة بينه وبين أبو ضاحي؛ إذا احتجنا إلى ما فيها، لن نُضطر إلى إيقاف السيارة.

وشتْ لهجةُ الشاروني بسخرية: هل انتهى الخطر؟

أعاد روايته عن خوفٍ عاشه، منذ سنواتٍ بعيدة: في الخرطوم. لم تُغلق البيوت ولا المحالُّ، ونزل الناسُ إلى الشوارع …

حرَّك عصاه في الفراغ: لا أصدِّق هذه التحذيرات عن أضرار الكسوف.

قال حسن حميد: التلفزيون عاد إلى برامجه العادية.

انطلقت السيارة في الشارع العريض الطويل، ثم مالت إلى شوارع أضيقَ مساحةً، يتداخل فيها الأسفلت والأرض الرمليَّة. البيوت الواطئة، وإن بُنيت بالطوب؛ فإنَّها تذكِّرك بما يطلُّ على الطريق في المدن المصرية.

التركيز في العينَين؛ تستعيد في توالي المشاهد ما كنتَ استمعتَ إليه، أو قرأتَ عنه في الصحف. الأرض المُسَفلَتة، المشقَّقة. الأعشاب البريَّة، تتصاعد من اختلاط الرمال بقِطَع الحجارة. طلقات الرصاص، تثقب واجهاتِ البيوت المهجورة. الدانات أحالتْ مواضعَ النوافذ دوائرَ واسعةً من الفراغ. بيوتٌ على حالها منذ تهدُّمها في القتال. أسقُف وجدران، تهاوتْ على بعضها. كُتل خرسانية. اختلاط الأسياخ الحديدية بالحجارة ومساحات الأسمنت. لافتاتٌ بأسماء دكاكين وشركات وعيادات أطباء؛ تناثرتْ داخلَ الرُّكام وفوقه. بقايا كتُب وكراريس وأوراق ممزَّقة مُتهرِّئة. مصاريعُ وأبواب نُزعتْ أو طارتْ من الضَّرب. مآذن وأبراجٌ، مالتْ على بناياتِ المساجد والكنائس.

أبطأ السائقُ في اقترابه من كُشكٍ عليه شِعار قوَّات الطوارئ الدولية. أسلاكٌ شائكة، ومساحةٌ خالية إلا من ضابطٍ وثلاثةِ جنود أمام كشكٍ، يعلوه العَلَم السوري. وراديو ترانزستور علِّق على منشر الغسيل تعلو منه أغنيةٌ لشادية، ومعدَّات فوق الهضبة المحيطة بالوادي.

أظهَرَ يوسف الشاروني سعادةً لَمَا ناداه الضابطُ الشابُّ باسمه. أطال النَّظر إليه. وضَعَ يده على كتفه في ودٍّ ظاهر: تعرفني؟

علا صوتُ الضابط بالتأثُّر: قرأتُ لك «العشَّاق الخمسة».

يقترب من الثلاثين. قامتُه متوسطة. يرتدي «ترننج سوت» أبيض بحوافَّ زرقاء. ثمَّة شُعيرات خشِنة نبتتْ في وجهه. دائمُ المسح على جبهته؛ كأنَّه يمسح عرَقًا.

أصختُما السمعَ لشرحِ الضابط عن معنى الهضبة. الوادي هو القنيطرة، وما يُحيط به من أراضٍ مرتفِعة هو هضبة الجولان. الصمت يعلو المكان، وإن خمَّنتَ صورةَ الحياة فوق الجبل من المعدَّات الهائلة المتشابِكة، والهوائيات يتخلَّلها أعمدةٌ كصواري السُّفن الشراعية، وما يبدو أنَّه أجهزةُ رادار وتنصُّت، وما يُشبه التلسكوبات.

قال الضابط: يمكنهم بهذه المعدَّات أن يروا ما يحدُث في شوارع الموصل.

وأنت تسحَقُ بحذائك خنفساء تتعثر في خطواتها: إسرائيل واجهةٌ لتقدُّم الغرب.

عاد الضابط من داخل الحُجرة الخشبية بكاميرا صغيرة. نادى على جنديٍّ ينشُر ملابسَ على حبلٍ بين شجرتَين. أمره أن يصوِّره إلى جانب الشاروني. لاحظ تحيُّرَ وقفتِك المُنفرِدة؛ فدعاك إلى الوقوف داخل الكادر.

قلتَ: هل رأيتُم الكسوف؟

تلوَّن صوتُه بحُزن: ربما شغلتْني ملاحظةُ هذا الكسوف فوق الجبل.

وأشار إلى المعدَّات الهائلة المثبتة فوق الهضبة.

أعدتَ تأمُّل المكان، تحاول اختزان الملامح والتفاصيل الصغيرة؛ البسمة الهادئة كأنَّما ألصَقَها الضابط وجنوده بوجوههم. الأسلاك الشائكة، والأعلام الإسرائيلية، والمعدَّات فوق الهضبة. تحذيرات: ممنوع الاقتراب. والأشجار والأعشاب البريَّة، وشقائق النعمان، ومساحات الخُضرة التي لا تدري مَن يرعاها، وقطع الحجارة، والدبابات المحترِقة، وثمَّة مزق من السُّحب البيضاء تتناثر في السماء، وطيور تنطلق في المدى، ونباح كلبٍ يترامى من مصدرٍ لا تتبينه.

لحق خطواتكما المتَّجهة نحو السيارة: لماذا لا تطيلون الزيارة؟

– تنتظرنا ندوةٌ في اتحاد الكتَّاب العرب.

الطوابق الستَّة يشغلها الاتحاد. في المدخل كاونتر للاستعلامات وحوامل كُتُب عليها مطبوعات، ولوحات على الجدران.

– هل كلها للاتحاد؟

– نحن نملك طابقَين، ونؤجِّر بقيَّة الطوابق.

السُّلَّم مزيَّن في جانبَيه بأُصصِ الورد والزهور وبالزخارف على الحائط. الطُّرقة الطويلة على جدرانها صورُ أدباء راحلين. الحجرات المفتوحة تشغي بالجالسين وراء المكاتب والمناقشات والنداءات. تجلسان وراء المائدة المستطيلة. الكتب متلاصقةٌ في أرفُف المكتبة التي تغطِّي جدران الحجرة الواسعة. وجوهٌ تعرفها، أو شاهدتَ صُوَرها، ووجوهٌ لا تعرفها. تلتقط طرَف الخيط، فلا تُفلته. ما يفِدُ إلى الخاطر ترويه أو تُبدي الرأي. ينتزعك السؤال عن انطباع الزيارة إلى القنيطرة. تختلط الصُّور المبعثَرة، بما شاهدتَه في التليفزيون من وقائع الكسوف. تفقد ترابطها واتصالها بوقائع أفضتْ إليها. ما يلتحم بها وينفصل عنها من حكاياتٍ ومعلومات وآراء، وما يسهل انتسابه إلى التجربة الأدبية. ثمَّة كلماتٌ تتخلَّق في أعماقك، تتشكَّل حروفها وملامحها، وإن بدَتْ غامضةً.

العنكبوت

١

لَمَّا رافقتُ أخي محسن إلى الحوش في المساء، كانت جمرات النار تلمع في حلقاتِ تدخين الجوزة. من حولنا شواهد القبور في الأحواش المتهدِّمة، وفي الطرقات الترابية؛ كأنَّها أشباحٌ ساكنة.

وقفتُ وراء أخي على باب الحوش، غطَّته الظُّلمة، وإن خمَّنتُ موضعَ المعلم عرابي — في استناده إلى جدارِ الحوش — من الْتماع الجوزة، وصوتها.

قال محسن: يريد أبي أن تفتح المقبرة.

أشعل المعلم عرابي فتيلةَ الكلُوب المُطفَأ.

– لماذا، لا قدَّر الله؟

– لا أعرف ... هذا ما طلَبَه أبي.

وهو يُبدي التأثُّر: عائلتكم موتاها كثيرون!

ومسح شفتَيه بظاهر كفِّه.

– ثالث ميت في أقلَّ من ستة أشهُر.

مضى ناحيةَ الشاهد. رفع التُّراب بالكوريك؛ حتى ظهرتْ المجاديل.

غالبتُ الفضول والخوف، والرَّجل يغوص في الحفرة المُفضية إلى النوامة. اختفى بنزوله، حلَّتْ في الداخل ظلمةٌ قاسية؛ فلم أرَ شيئًا. حتى كلماتُ الرُّجل التي كانت تتناهى من الفتحة، حلَّ — بدلًا منها — صمتٌ وتوقُّع، وخوف.

كان الضوء المنبعث من الفتحة أعلى النوامة، قد كشف الأرض الرملية في أسفل، وإن تكاثفت الظِّلال في المواضع القريبة؛ حتى أخفَت الظُّلمة كلَّ شيء. يشرد تأمُّلي في الموت،

وإغلاق القبر والمَلَكين والحساب عن أفعال الدنيا، هل يموت أبي؟ وهل يتحرَّك داخل القبر، أو يظلُّ ساكنًا؟ ... يا هذا: مَن ربك؟ ... ربي الله ... صدقتَ. ما دينك؟ ... ديني الإسلام ... صدقت. فمَن نبيُّك؟ محمد رسول الله.

قلتُ لأبي: هل الملكان بشَرٌ مثلنا؟

زغدتْني أمي في غضب: لا تكفُر يا ولد.

قال أبي وهو يهرش مقدمة رأسه بطرَف إصبعه، كمَن يطلُب ذاكرته: لعلَّه يقصد إنْ كانا يظهران للميِّت على هيئة البَشَر.

كنتُ قد رافقتُ جنازةَ عمِّي عبد السميع إلى الحوش. اندسَّ الأولاد بين سيقان المشيِّعين. شخَطَ التُّرَبي: الْعبوا بعيدًا ... لكنهم واصلوا الاندساس بين الأجسام، أو وقفوا على باب الحوش. تعالتْ أدعيةٌ وآيات القرآن، ونصائحُ الشيخ للميِّت حين يبدأ المَلَكَان في حسابه: وستعلم يا عبد الله أنَّ الموت حقٌّ، وأنَّ الجنة والنار حقٌّ، وأنَّ الساعة آتيةٌ لا ريب فيها.

يطمئن أهلُ الميِّت على إغلاق المجاديل ويبدَءُون في الانصراف.

٢

أَلِفتُ التردُّد على المقابر. أُخلِّف ميدانَ كرموز باتِّساعه وصخبه. أتشاغل — وأنا أمضي وراءَ مُحسِن في الطريق التُّرابي — بالمُطِلَّات من مستشفى دار إسماعيل إلى جوار أسوار المقابر. الأحواش على الجانبَين تهدَّمت أبوابها، ونُزعت نوافذها، وتشقَّقت الجدران؛ حتى ظهرتْ قوالب الحجارة البيضاء. وثمَّة مقابر تتناثر بين الأحواش، وتلاغط الصوات وهرولة الأقدام وراء النعوش، والأسبتة والحُصر وأقراص الرحمة وتلاوة القرآن وبوابير الجاز. يلقي أخي السلام على الجالسين داخل الأحواش أو الواقفين أمامها. سِحَن أَلِفْنَا رؤيتها بتوالي قدومنا إلى العامود. يصرُّ أبي فنأتي في الموعد الذي يحدِّده. نخضع لتغير سحنته، والصوت الذي يتحول إلى حشرجة. تساعدنا أمي في استبدال ملابسنا وهي تعيد معنى الكلمات التي صرخ بها أبي. لا تقول كلَّ ما قاله، وإنْ شغلتْها العلاقة بين كلام أبي عن الموت، وضِيقه من العنكبوت في موضعٍ لا نراه داخل الحجرة. يكفي أن تطلبوا من المعلم عرابي أن يفتح النوامة وينظفها.

وتُغالِب التأثير: والدكم بخير.

٣

لَمَّا غادر المحامي الأشيب حجرة أبي؛ طالت وقفة أمي معه في الصالة الواسعة. تسلَّل إلى آذاننا كلمة «الوصيَّة»، تكرَّرتْ في حديثهما، وعكست نظراتنا المندهِشة تخمينًا بما استدعى أبي المحامي من أجْلِه.

همَسَ مُحسِن بالسؤال: عرَفْنَا العنكبوت ... فماذا عن الوصيَّة؟!

كان يتحدَّث عن شيء لا نراه، ويشير إليه. تعود نظراتنا خائبة من التحديق في زوايا السقف والجدران. أخمِّن أنَّه رأى السمك العنكبوت في التكوينات التي صنَعَها نشْعُ الرطوبة وتساقُط الطِّلاء.

هزمتْ أمي رأسها: يحيا فكرة الموت.

وأردفتْ: قال للمحامي إنه يريد إرضاء ضميره.

هتف محسن: هو لا يملك شيئًا حتى يوزِّعه علينا.

وأطلق من أنفه ضحكةً مكتومة: ربما وزَّع علينا بالتساوي ما كان يحرسه في الساحل.

حين أشار إلى الأسماك المتقافِزة على كورنيش الشاطئ، وعلى الرصيف، في منطقة حراسته أمام قبر الجندي المجهول؛ خمَّن أنَّ الواقفين على الشاطئ رأوا ما رأى. بدتْ في تشابُك الخيوط حول أجسادها القنفذية مختلفةً عمَّا يحمله صيد السنَّارة والطراحة والجرَّافة. كأنها العنكبوت التي يراها في الأركان والزوايا والأسقف وأعلى الجدران.

أصرَّ على ما رأى، حتى عاد إلى البيت بخطابِ الإحالة إلى الاستيداع. لزم حُجرته خمسةَ أيام لا يغادرها. جلَسَ إلينا — بعدها — في الصالة. سأَلَنا عن دروسنا. كلَّمَ أمي فيما لم يكُن يشغله من أمور البيت. تمشَّى — ذات عصر — إلى مقهى الوردة في أول شارع اللبان، وطالتْ جلسته إلى ما بعد العشاء. بدا كأنَّه استردَّ نفسه، وعاد إلى مألوفِ حياته، لكنَّ شيئًا ما غيرَ مرئي وسَمَ ملامحه وتصرُّفاته. وكان يُطيل الصمت، ويكتفي بالإجابة عن الأسئلة. فاجَأَنا بالحديث عن عنكبوتِ البحر. لم يكُن يتصوَّر أنَّها ستُطالِعه في زوايا الحُجرة.

٤

بلَّلتْ أمي — بلُعابها — طرَف الفستان. جرَتْ على ما تصوَّرتُ أنه المقصود بالعنكبوت، لكنَّ أبي ظلَّ على تحذيراته وإشاراته إلى مواضع، أخفقتْ أمي في أن تجِدَ فيها ما يُشير إليه.

لم تعُد أمي التي نعرفها.

بدَتْ صامتةً، لكنَّ ملامحها عكسَت الحزنَ وفقدان الحيلة. استطال وجهها المستدير، وتهوَّش شَعرها؛ فلَمْ تُعنَ بأنْ تمشِّطه. فكَّتْ الإيشارب من رأسها؛ فانسدَلَ الشَّعر حول الوجه، وعلى الكتفَين. كانت تقف على باب الحجرة التي يجلس أبي في داخلها. ترقُب حركاته وتصرُّفاته، ولا تستطيع أن تتصرَّف، وإنْ حرصتْ — عندما يأتي الليل — على أن تدور في الشقة، تُبَسمِل وتُحَوقِل، وتُطلِق بخور اللبان والجاوي والفسوخ في زوايا البيت، تطرد الأرواح الشريرة، وتُبعِد أذى النظرات الحاسدة.

غلبتْنا الحيرة، فلَمْ نَدرِ ماذا نفعل؟! بدتْ كلُّ الطُّرق مسدودة.

٥

– افتحوا المقبرة!

استعدتُ العِبارة من أبي. كانت عيناه مُتعَبتَين. خمَّنتُ أنَّه لم ينَمْ جيدًا.

– افتحوا المقبرة!

– لماذا؟

وهو يفرك لُزوجة العَرَق في صدره، ويَذرُوها في الهواء: أشعُر أنِّي سأموت.

– الطبيب طمأنك على صحتك.

وَشَى تهدُّج صوته بانفعاله: أنا الذي يشعُر باقتراب الموت، وليس الطبيب.

ثم وهو يزفر: طبيبكم حمار!

٦

تردَّدتُ على المستوصف المطلِّ على شارع اللبان، في أوقاتٍ من الليل والنهار. يصحبني الطبيب، أو يأتي بعد عودتنا إلى البيت. يفتح الحقيبة، ويضَع السمَّاعة في أذنَيه، يتحسَّس بها صدْرَ أبي وظهره وبطنه، يطالبه بأن يأخذ نفسًا عميقًا، ويحدِّق في اتساع عينَيه، ويضغط على جنبَيه، يرفع رأسه متنهدًا: لا شيء … أنت بُمب.

تخرُج الكلمات من فمه بطيئةً، مسترخية: لكنَّ الألم يقتلني.

ويشير إلى العنكبوت المستلقي على خيوطه في زاوية السقف: وتقتلني رؤيةُ هذا العنكبوت.

يُهمل الطبيب الالتفات إلى الموضع الذي أشار إليه أبي، يأخُذ القلم من جيب جاكتته العُلوي: ربما تحتاج إلى راحة.

يُجري على الورقة الصغيرة كلماتٍ بالإنجليزية: هذه مُقوِّيات … ستصبح بعد تناولها مثل الرَّهوان.

يمطُّ أبي شفتَيه — في انصراف الطبيب — دلالة أنَّه غيرُ مُقتنِع. تبوح عيناه بكلماتٍ، لا تنطق بها.

٧

أعود من المُستوصَف. يتناهى صوتُ أبي من داخل حُجرته، يسأل عن حقيقة مرضه؟ أتأمَّل تسانُدَ ظَهْره على السرير ذي الأعمدة من النحاس الأصفر. فُرشت عليه مُلاءة مطرَّزة الحواشي، وثُني أسفلَه لِحافٌ من الساتان.

قال لنا الطبيب إنَّ الوساوس هي ما يُعانيه أبي. حتى الأشعة والتحاليل، لم تُشِر إلى مرضٍ من أيِّ نوع. وكان أبي يشعُر بتسلُّل المرض واقتراب الموت. يُحكِم المِلحفةَ الكتَّانَ حول وجهه، ويكبس الطاقيَّةَ الصُّوفَ في رأسه. يتأمَّل التكوينات في السقف والجدران، تتشكَّل من اهتزازات الضوء المرتعِش للمبة المُدلَّاة، وثمَّة ذبابةٌ حاولت أن تتخلَّص من الْتصاق خيوط عنكبوت في زاوية السقف، ثم سكنتْ.

وهو يلتقط أنفاسه من فمه المفتوح: هذا الرجل؛ ليس الطبيبَ الوحيد في الحي … هاتوا طبيبًا آخر!

٨

بدَت الحركة في البيت غيرَ طبيعية؛ عرفتُ أنَّ أبي طلَبَ استدعاءَ طبيبٍ من محطة الرمل. جاء الطبيب، ولم يجِدْ شيئًا … لكنَّ أبي ظلَّ على يقينه أنَّه سيموت!

ما معنى أن يستيقظ المرء — ذات صباح — ليجِدَ نفسه ميتًا؟!

٩

بدَت أمي مذهولةً. همَسَت بصوتٍ متحيِّر بطَلَبه أن يكون دفْنُه على وجه الدنيا. رفَضَ النوامة؛ ينزلون به على الدَّرَجات الرُّخامية؛ حتى يوسِّدوه التراب في أسفل. يعيدون المجاديل؛

فتسودُّ الظُّلمة المتكاثِفة. غمغمتُ بما أتصوَّر أنَّها لم تتبيَّنه هي نفسها، واتَّجهتْ ناحيةَ الباب وهي تُغالِب الدَّمع.

زفرتْ في حيرتها: كلِّموه أنتم!

١٠

صحبَني محسنٌ إلى حلقة السَّمك، تشاغلتُ عن الرائحة النفَّاذة بتأمُّل الصالة الواسعة. يستند سقفها إلى كَمَراتٍ من الحديد، وتتناثر في الأرض المبلَّلة بالماء طبالي السَّمك ومستطيلات الثلج، وتتلاغط أصوات البيع والشراء والفريشة وراء الطاولات والعربات الصغيرة. وثمَّة رائحةٌ نفَّاذة من الطحالب والأعشاب وبقايا الأسماك والمياه الآسِنة.

قال محسنٌ لملامح الرجل المتسائلة في وقفته أمام القُرمة: أبي بخير ويسلِّم عليكم.

سأل باعةٌ وصيَّادون عن أبي؛ فعرفتُ أنهم يعرفونه، ويعرفون أخي.

نزع العجوز ذو «البنش» المكويِّ مَبْسِم الشِّيشة من فمه، وزوى ما بين حاجبَيه الكثيفَين: هل قال لك قناديل البحر؟

قال مُحسن: السَّمك العنكبوت.

قال العجوز: لعلَّه تكلم عن السمك الرعَّاش.

قال محسنٌ في إصرار: السَّمك العنكبوت.

مطَّ الرجل شفته السُّفلى: لا أعرفه!

١١

فاجأنا أبي بما لم نتوقَّعه.

أطال التطلُّع إلى السقف والجُدران، كأنَّه يتأمَّل التكوينات والأشكال التي صنَعَها تساقط الطِّلاء. أعاد تأمُّل ما لم أرَه في زاوية السَّقف. توالتْ ضرباته على كتفَيه وصدره وفخذَيه، كمَن يطرد حشراتٍ صغيرةً لا نراها. همَّ أن يَنضُو ثيابه عن جسده، لولا أن أمسكتْ أمي يده وهي تصرُخ. نزع جِلبابه بحركةٍ واحدة. اهتزَّ جسمه بالانفعال، واعتراه نشيجٌ ورجفات، وتقلَّصتْ ملامح وجهه، واتسعتْ عيناه، وتهدَّل فكُّه، وتكوَّرتْ قبضتاه واهتزَّتا، وحدَّق فيما لا يتبيَّنه أحد. خلتْ عيناه من السَّواد تمامًا، لم يعُد فيهما إلا البياض. بصَقَ على شارب صرصار يُطلُّ من ثقبٍ في الجدار. أدركتُ أن فمه قد امتلأ بالكلمات،

وإن عجَزَ لسانه عن النُّطق بها. تداخلتْ — بالانفعال — حشرجةٌ في صوته فسَكَت. شبك أصابعه. أدارها كمَن يغزل خيوطًا، وإن ظلَّ فمه الفاغر على صمته؛ فلم أعرف ماذا يقصد؟ حاوَلَ أن يتكلَّم؛ لَاكَ الكلماتِ في فمه، لكنَّها لم تخرُج من بين شفتَيه، ثم علا صوتُه بكلماتٍ أشبهَ بالغمغمة: الرُّوح ترفض الخروجَ إلا ببرهان.

بَحْلَقتْ عينا محسن بالدهشة: برهان؟!

في كلماته المغمغمة: يأتيها ملَكُ الموت بتفَّاحة من الجنَّة مكتوب عليها: بسم الله الرحمن الرحيم.

١٢

صحونا على ارتطامات، وصوت أبي كالمستغيث.

تسلَّل من انفراجة الباب ضوءٌ مستطيل، ممتدٌّ على أرضَ الحُجرة. وكان أبي مُستلقيًا على ظَهره. جحظتْ عيناه، وانفتح فمه. بدا أنَّه عانى اعتصارَ قبضةٍ قاسية. وثمَّة عنكبوت — لم تكُن قد فطنت إلى وجودها — تغزل خيوطها، فتشكِّل ما يُشبه الغيمة في أعلى السرير.

البيرق

احتشدت الجموع أسفلَ القلعة، يرفعون الرايات الملوَّنة والبيارق وأضواء الشموع والقناديل والنفط، وتعلو أصواتهم بالنداءات والصيحات والأدعية. تدفَّق الخلق على ميدان الرميلة؛ أرباب المعايش وأهل الصنائع والحِرَف والعوام. نفذوا إليه من باب الخلق وبركة الفيل والمحجر وسوق السلاح والشيخونية. هبطوا من أعلى المقطم. زادت الأعداد؛ فتلاصقوا، وتشابكوا، وعلت الأصوات في انتظار البيرق النبوي. يتطلَّعون إلى الصاري الخشبي في زاوية ساحة الميدان، يتصوَّرون البيرقَ يخفُق من فوقه.

شقَّ لنفسه طريقًا بين الأجساد المتلاصقة والدفوف والطبول والصاجات والبيارق والأعلام والجلابيب والخرق الملونة والصياح والنداءات والصراخ والتوسلات والأدعية والتواشيح والتسابيح والمدائح والابتهالات الدينية. ثبتت خطواته في أول الدحديرة المُفضية إلى القلعة. لم يعُد أمامه إلا أن يواصل طريقه.

قُرعت الطبول، ونُفخ في الأبواق، وتلكَّأت المواكب أمام الجوامع والمساجد، وعلَت الأصوات بالاستغاثات، وكثُر الهرج والمرج والضجيج والبكاء والتضرع إلى الله بالدعاء، وامتلأت الجوامع والساحات بالمئات من أهل المَرقعة والذِّكر والدَّروشة ومُريدي الصوفية والجعيدية والذعر. عكفوا على تلاوة آيات القرآن والأوراد وقراءة البخاري على الغزاة، وذاعت تجارة الأحجبة والتمائم، ولجأ الناس إلى المنجِّمين، يحاولون معرفة الغيب وكشْفَ المحجوب!

لَمَّا طالَبَ الباشا بالإعداد لأسبابِ الحرب، وبالاستعداد؛ أذهَلَه ما رواه قائدُ الجُند: فرغتْ خزائنُ السلاح ممَّا كان يملؤها من الخُوَذ والدروع، والتجافيف والجواشن والسيوف، وصناديق النصول، وحباب السِّهام الخلنج، وصناديق القِسي، ورِزَم الرِّماح وشدَّات القسي.

قال قائد الجُند: مولانا الباشا، لم يبخل على قوَّاته بالسلاح ولا بالمال.

أضاف في صوتٍ هامس: لكنَّ الأعداء يملكون من القوة ما لا نستطيع مواجهته!
أضاف: مسئوليتي أمام الباشا، تفرض عليَّ أن أصارحه بحقيقة الأوضاع.
قال الباشا: ماذا تقصد؟
– إنما أردتُ أن أوضِّح ما نحن فيه.
وعلا صوته: لكنَّ جنودنا، لن يسمحوا لهم بالدخول.

نقل الباشا إلى قائد الجُند شكوى الناس من مشاركة الجُند لأرباب الحِرَف والتُّجار في أرزاقهم. عاب عليه معاركَ فرقتَي الإنكشارية والعزبان. تجاوز حرَمِ القلعة إلى الأحياء المجاورة؛ فيعاني أبناءُ البلد ويلاتها. حتى يستميل الناس؛ فقَدْ ألغى الكثير من الضرائب والمكوس، وصادَرَ ثرواتِ أمراءِ المماليك الذين اختفوا من قُصورهم، ومن كلِّ القاهرة.

صَعدَ إلى القلعة الأمراءُ، وأربابُ العكاكيز والمناصب، والأشراف والأعيان، والاختيارية والوجاقلية، وكبار التجَّار والمباشرين. لحق بهم مشايخ البلد، ومقادم الأقاليم، وأكابر العُربان، ثم فُتحت أبواب القلعة على مصاريعها، لا تُغلق في ليلٍ ولا نهار. يصعد إليها أصنافُ الناس على اختلاف المكانة والطبقة.

ضُربت المدافع من الأبراج، ونزل الباشا إلى الكُشك المعدِّ له في ساحة القلعة، هُيِّئ المجلس بالفرش الفاخر، والمساند، والستائر الفاخرة. واصطفَّ الخدَم والجاويشية والسُّعاة والمُلازمون.

تقدَّم شيخ الأزهر، يحيط به ويتبعه المجاورون. يطلبون وضوحَ الأمر، وعمليات التدبير والتجهيز. سبَقَ الوالي شيخَ الأزهر إلى حُجرةٍ خلتْ إلا منهما. أمَرَ الوالي؛ فأغلَقَ الجُند البابَ.

قال شيخ الأزهر: نصيحتي أن توزِّعوا السِّلاح على الناس.
– أيُّ ناس؟
– حتى الزعر والحرافيش. الدِّفاع عن البلاد مسئوليةُ الجميع!
الْتمعت عينا الباشا بالغضب: لم يعُد في المخازن شيءٌ ممَّا يُستعمل في المعارك!
فيصبح الأمر فوضى.
– إنْ خِفتُم؛ فاعملوا على تقوية الجيش.
– هل نطلُب من الأعداء أن يُوقفوا هجومهم حتى نعدَّ أنفُسنا للقائهم؟
فكَّر الشيخ طويلًا: ضع السلاح في أيدي الناس.

أهمَلَ الباشا نصيحة وزرائه بأن يستدعي شيخَ مشايخ الصوفية إلى قلعة الجبل. مضى إليه في بيته القريب من ساحة الجامع العتيق بالفسطاط. بدا الموكب مخالفًا ما

اعتاده الناس من أنواع الملاعيب والبهلوانات والطُّبول، وجواد الباشا يسبقه ويُحيط به الملازمون والطبالون وغيرُهم من المُقدمين والخدَم والجاويشية والركبدارية. يرتدون الزرد والخُوَذ واللثامات الكشميري، ويتقلَّدون القِسي والنُّشَّاب، وفي أيديهم المزاريق الطِّوال، وثمَّة النوبة التركية والنفيرات تترامى من أعلى القلعة. شقَّ الموكب طريقه، أمامه السُّعاة والجاويشية والمُلازِمون، ومن الخلف النوبة التركية، وفي الأمام جميع الأمراء بالشِّعار والبلشانات بزينتهم. اجتمع الناس للفُرجة، وإنْ وَشَت النظراتُ بالقلَق والخوف.

استقبله شيخُ مشايخ الصوفية على رأسِ أرباب السجاجيد والخِرَق. سأله النَّصيحة في الأخطار المُحدقة بالمدن والثغور؛ لم يفُه الشيخُ بالنصيحة في ذات اللحظة؛ أسلَمَ نفسه لشرودٍ وتأمُّل، وتمتَمَ بما لم يتبيَّنه الوالي، ثم اتَّجه ناحيته بأعلى صدْرِه: نحن في حاجةٍ إلى البيرق.

– أي بيرق؟

– البيرق النبوي.

– وأين نجِدُه؟

– في دارِ الخلافة … في الآستانة.

ثم قال في لهجةِ تأكيد: ما دُمنا نحتفظ بالبيرق؛ فنحن نحتفظ باستقلال البلاد.

قال الشيخ: إنَّ ردَّ الغُزاة ميسورٌ إذا اطمأنَّ الجُند إلى وجود البيرق النبوي في المقدِّمة؛ له من قوة التأثير والكرامة ما لا تُخطِئ به ضرباتُ السيوفِ أعناقَ الغُزاة. أخَذَ الشيخ على الشائعات التي وَجَدتْ في الغزو ما يُصعِّب مقاومته، أو التصدِّي له، وأن الخطر الماثل على الحدود هو خطرٌ لا يردُّ. أَلِفَت قوات المسلمين تقديم البيرق — منذ عهد الرسول — وأَلِفَت جني ثمار النصر.

عيَّن الحاجبُ موضعَ البيرق منذ بعثتْ به الآستانة، وصعد به الجُند — للمرَّة الأُولى — إلى أعلى الجبل.

ركِبَ المنادي حمارًا يخترق شوارعَ القاهرة. يُعلِم الناسَ بالخطر الذي اشتدَّ اقترابه. ذكَرَ الناسُ في مناقشاتهم وأسئلتهم عن حكاية البيرق الذي أقام أوَدَ قلعةِ الجبل نصرةً للإسلام والمسلمين في أيام الخطر.

إن لم يكُن هذا أوان ظهور البيرق؛ فمتى يكون أوانه؟!

كان قد صحا على طَرَقاتٍ لم يألفها في هذا الوقت؛ الليلُ انتصف، واختفَت الأصوات، الظُّلمة في ميدان الرميلة تماوجتْ بالأنوار والظِّلال والبيارق والسيوف ومجامر البخور. وعَلَت أصواتُ الأذكار والابتهالات والأدعية.

تبيَّن وجهَ الخادم في ضوء الفانوس الصغير: الباشا يسأل عن البيرق؟!

– أي بيرق؟

– البيرق النبوي.

في عفويَّة: ما الذي ذكَّره به؟

– إنه يريده.

– أذكُر أنه في مخازن القلعة.

واستطرد: سأبحث عنه في الصباح.

– الباشا يريد البيرق الآن!

استأذن في ارتداء ما يصعد به إلى القلعة. الأعوام بعيدة منذ تسلم البيرق النبوي بطلَبٍ من الباشا أن يودعه، فلا تصل إليه يد. عُني الوالي بالفِرَق الصوفية؛ أقام لأفرادها الخوانق والتَّكايا والرُّبُط والزَّوايا، وأنشأ لأقطابها الأضرحة والمقامات والقِباب. وحبَسَ على طعامهم وملبسهم وخلواتهم الحُبُوس والأوقاف، وكان ينزل من قلعةِ الجبل إلى حيث يُقيمون؛ يلتمس البَرَكة والقُربَى، ويسأل المَشُورة. حمل شيوخ الصوفية البيرقَ النبوي من الآستانة إلى مصر المحروسة. وضَعَ في موضعه — تُحفة حِراسة الجُند — بنصيحةِ خليفة الطريقة الأحمدية.

حين أبلَغَ الأرصادَ باقتراب الأعداء؛ صام آلافٌ من المتصوِّفة في أوقات الليل، يتوقَّعون الخطر من ناحية الشرق. سبَقَه أفرادٌ وجماعات يتكلَّمون لغةَ المصريين، ويرتدون أزياءهم، ويتصرَّفون بما أَلِفَه أهلُ البلاد من العادات؛ فأَنسَ الناسِ إليهم.

سرَتْ شائعاتٌ أنَّ الأعداء قَدِموا بالآلات العجيبة، والصنائع التي لا قِبَل للجيوش على مغالبتها: المنجنيق يُلقي بالأحجار والرُّعب والموت والنفط المشتعِل، والدَّبَّابات تثقُب الجدران والحوائط؛ فيسهل النَّفاذ منها، والبنادق لا تنفد طلقاتها.

كثُرَ ابتياع الناس لكلِّ ما يدافع به المرءُ عن نفسه: السيوف والسكاكين والشُّوم. حمَلَ السلاحَ مَن لم يكُن يحمله قَط من أهل البلد، وتعاوَنَ الأُمراء والقُضاة والصوفيَّة والزُّهَّاد وأولاد الناس والزعر في حفر الخنادق، وحمْلِ الحجارة لبناء التحصينات.

حين هاجَمَ الجُند جامعَ الأنور، أهمل الناس ما رأوا: دفَعَ الجندُ الشيخَ الحبيبي إمامَ الجامع إلى الطريق. مضوا وراءه بالسِّياط والهراوات، وهو يصرُخ ويستغيث بأتباعه

ومُريدِيه، وبالمارَّة والمُطلِّين من النوافذ، والواقفين على أبواب البيوت والدكاكين، والمُقعَدين. بدا الخطرُ أكبرَ من حياة فرد، حتى لو كان الشيخَ نفسه. اكتفوا بالنظرات المتابِعة لَمَا يجري، أو إبداء التأثُّر بهزَّة الرأس أو مصمصة الشفتَين. شغَلَهم التفكيرُ في دفْعِ البلاء الذي اقتربتْ أنفاسه.

تناوَبَ الجند الضربَ على جسد الشيخ: الرأس، والعنق، والصدر، والظهر، والبطن، والساقَين، وكعبَي الرِّجلَين. لم يعُد للضربِ في جسده موضعٌ، ولم يتركوا فيه عضوًا سليمًا.

همس الشيخ في تذلُّل: اشتروا حياتي يا ناس.

قال قائد المئين: إنهم مشغولون بخطرِ الأعداء ... لا تَشغَلهم حياتُك أو موتك.

ظلَّت الجثَّة معلَّقة — ثلاثةَ أيام — على باب زويلة. بدَّلت رائحةُ الموت من مشاعر الناس المُشفِقة؛ فطالبوا بدفنها. لم ينتظروا موافقة قائد الشرطة. أنزلوا الجثَّة، وواروها الترابَ بالقرب من تِلال الدرَّاسة.

البيرق هو الأمل المُرتجى إن واجهَت البلادُ الخطَرَ. موضعه — في الحجرة العُلوية — للوالي — وسلالته؛ يتوارثونه إلى غير نهاية، لا شأن للصفوة ولا للعوام به. إذا نُشِر، فعلى كلِّ المسلمين الخروج إلى الجهاد، وبيع الأرواح بيعَ السَّماح. لم تعُد الأمور مثلما كانت عليه في الماضي ... لكنَّ الخَلق أَلِفُوا الأوضاعَ القائمة المستمرَّة. ولم يجِد الباشا فيما يحدُث داعيًا للُّجوء إلى البيرق؛ أتى به أعوانُه ذات ليلة ليصبح من مقتنياته الخاصة، لكنَّ أكبر أبنائه خرَجَ به في رحلة — دون أن يُخبره — ولم يعُد به. هل يكون للأمر صِلة بالشائعات التي تهامَسَ بها المصلُّون في جامع الأزهر أنَّ البيرق ظهَرَ في بلد الأعداء؟

قال قطب الشاذلية: ليس أنسبَ من هذا الوقت لإخراج البيرق النبوي؛ فيلتفَّ الخَلق حوله.

استطرد شيخ التيجانية: ويتحقق النصرُ بإذن الله!

أُحيطت القلعة بأعدادٍ من الجنود، وصَفَت أكياس الرمل أمام الأسوار والأبواب، لم يكُن السادن الموكَّل بحِراسة المخازن في موضعه أمام الباب المُفضي إلى أعلى القصر؛ هو وحده الذي يعرف موضع البيرق في الحجرة السريَّة الخفيَّة، لا يعرفها أحد غيره، ولا يطَّلع على ما بها سواه.

مضى من باب الوزير إلى الديوان العالي؛ الطريق منحوتة في الصخر، وعلى الجانبَين حُجرات صخريَّة؛ أبوابُها من الحديد المُغلَق على الحيوانات المفترسة، فيُلجم الخوف مَن تأذن له نفسه بالصعود إلى حيث يوجد البيرق.

اخترَقَ القبو الخلفي للباب العالي. مضى منه إلى سِرداب مفعم بالظُّلمة. أبطأ من خطواته وهو يمضي — بحذَرٍ — في داخله. تحسَّس بمقدمه درجات السُّلَّم. اطمأن إلى موضع السُّلَّمة الأولى؛ فواصَلَ الصعود. أسرَعَ الخطوات عند رؤيته لأضواءٍ خافتةٍ بعيدة في نهاية السرداب.

أطال التحديق في الحُجرة الرَّمادية الضوء. علا بالقنديل فوق رأسه.

لامستْ أصابعه في موضع البيرق خشونةَ تسوُّس العصا والفجوات الصغيرة؛ تشابك فيها العلَمُ والحبل المهترئ.

الزيف

عرفته — للمرَّة الأولى — في حواديت أمي. كانت تقرنه بالجان والعفاريت والأشباح والأرواح الشريرة. وحين كبرتُ، وتركتُ الحَارَة للَّعب مع الأولاد في الشوارع القريبة، أخافتْني ملامحه أشدَّ ممَّا رسمتْها أمي في حواديتها. كان يتوسَّط الرجال في المقهى المطلِّ على ميدان أبو العباس.

أَلِفتُ رؤيته على المقهى وشاطئ البحر، وفي الحلقة وشارع الميدان والحديقة المقابِلة لمستشفى الملكة نازلي. وكانت تكشيرته تجِدُ الصَّدى ابتسامة في أعيُن مَن يلتقون به، أو أنَّهم يتجنَّبون طريقه.

تابعتُه ذات مساء وهو يمضي — بخطواتٍ متعثِّرة — في الأرض الخلاء المطلَّة من اليمين على بناياتِ جنود مصلحة السواحل، ومن اليسار على شاطئ الأنفوشي.

كانت ملامحه على قسوتها، لا تبين عن باعث الخطوات المترنِّحة.

تسلَّلتْ نظرتي من خَصَاص نافذة شقَّة الطابق الأول التي دخَلَ إليها. تلفَّتَ — وهو يعاني — كمَن يتأكَّد من خلوِّ المكان، ثم نزَعَ قناعًا من وجهه، وقذَفَ في حلْقِه حبَّاتٍ صغيرة.

بدا وجهه ضامرًا، وشاحبًا، يختلف عمَّا كان، يخيفني في حواديت أمي، وفي سيره وقعوده، وسط الناس.

الخيمة

لا نذكُر متى نصَبَ الخيمة، وفرَدَ السجَّادة أمامها.

اجتذبتْنا ملامحه الساكنة، وعيناه الساجيتان، وأداؤه للصلوات في مواعيدها، والتَّمْتَمات التي تتحرَّك بها شفتاه، كأنَّه يدعو أو يبتهل. أهملنا الهمسات المتسائلة عن المكان الذي قدِمَ منه، وما إذا كان له أقاربُ في مدينتنا، أم أنَّه أتى من مدينةٍ بعيدة لا نعرفها.

تلكَّأتْ خطواتنا، ونحن نتابع تنقُّله بين الخيمة، والسجَّادة، وبئر المياه، والسَّير المتأمِّل في الخَلاء المحيط.

سأل، وأجاب عن أسئلة، وأخَذَ، وأعطى. أَلِفَ الكثيرون الجلوسَ في ضيافته. امتدَّت أحاديثه. تحدَّث عن زُرقة السماء، وسطوع الشمس، وضوء القمر، والنجوم، والزرع، والنخيل، والطير، وقصائد الشعراء، والأغنيات، والمواويل، والحكايات القديمة، وليالي السَّمر. وتحدَّث عن الصداقة، والمَحبَّة، والسلام الذي يجب أن نحيا في ظلِّه.

لَمَّا حذرناه من الثأر الذي نعدُّ له: ربما امتدَّت المعارك إلى الخيمة والسجَّادة؛ قال في ابتسامةٍ طيِّبة إنَّ اختياره للمكان؛ حتى ننسى الثأر. السلام هو ما ينبغي أن نعدَّ له أنفُسنا. نصَحَ بأن ننشغل بزراعاتنا، ونصَحَ الرُّعاة أن يستبدلوا العِصيَّ بالبنادق.

ذات صباح، هبط الأعداء من أعلى الجبل. قتلوا، وسبوا، وهدموا البيوت والأكواخ، ودمَّروا المزروعات، واستولوا على الماشية.

ونحن نفرُّ بأنفُسنا من المطاردة القاسية. اتَّجهتْ نظراتنا — بعفويَّة — ناحية الخيمة. كان الموضع خاليًا.

العرَّاف

كان أهل المدينة يُعانون الانكسار في وقفتهم على جانبَي الطريق، تشقُّه مواكب الجيش الغازي ... تتقدَّمه الأعلام والشارات والفِرَق الموسيقية. تتبعه مواكب الأسرى، آباء وأخْوَة وأقارب وأصدقاء، تصل القيود الحديدية توالي صفوفهم.

هتَفَ شيخٌ من بين الزِّحام: أليس هذا هو العرَّاف الذي تنبَّأ بالانتصار؟

أمَّن المحيطون به على كلماته وهم يرمقون الرجل الذي بدا في مكانة طيِّبة بين قوَّات الغزو. يرتدي ثيابَ العزِّ، وتعكس ملامحه تِيهًا وطمأنينة.

قدِمَ العرَّاف — ذات يوم — من مدينةٍ لم يحدِّدها. زار القصور والدُّور والجوامع والأسواق، ردَّد نبوءته بتأكيد الانتصار. قرَنَ تأكيده برُؤى وإشاراتٍ إلى أحوال الكواكب والنجوم، فصدَّقه الناس. كانوا يستعملون أحكامَ النجوم والكواكب، يميلون إلى تصديقها، والعمل بأخبارها. وكانت حياتهم مشغولةً بمطالعة الفَلَك، وقراءة الغيب والتنجيم والتعزيم، والرُّقى، والتعاويذ، وأعمال السِّحر. أسندوا ظُهورهم إلى حائط الدَّعة والطمأنينة، وتطلَّعوا إلى أفق النصر.

سندس

وأرقام الردهة المستديرة ذات البلاط المنقوش، والإفريز الحديدي المتداخل التكوينات؛ تتوسطها مائدةٌ من الخشب على هيئة الوردة، وتتدلَّى من السقف نجفةٌ شاحبة الضوء. وإلى اليمين، مكتبُ الاستقبال. تنشغل الموظَّفة بتلقِّي المكالمات التليفونية، وإرسال البرقيَّات، وملء الأوراق ببيانات. في الامتداد طُرقة ضيقة، تفضي إلى المطابخ ودورات المياه. وإلى اليسار بارفان استُبدل بالباب، يؤدِّي إلى المطعم. ثمَّة بابٌ على اليمين فُتحت إحدى ضلفتَيه الخشبيَّتَين، في داخله طاولات، صفَّت حولها كراسي. وإلى اليسار، بار وُضعت فوقه الكئُوس والأكواب. وعلى الأرفف، زجاجاتُ الخمر تقابلها شُرفة بامتداد المكان، تطلُّ على الطريق المزدحِم بالسيارات والمارَّة.

أمضى الساعات في القراءة وتأمُّل الفراغ ومشاهدة التليفزيون في قاعة البار، ربما دخَلَ في مناقشةٍ مع إيماءةِ ترحيب، تقطعها كلماتٌ معتذَّرة لموعدٍ، أو استقبال صديق. يُسند الكرسي إلى نافذةِ الشُّرفة المطلَّة على شارع باريس؛ يتابع حركة الطريق. يحلُّ الغروب؛ فيخفُت وقْعُ الأقدام حتى يتلاشى، ويتباعد تناثُر المحالِّ المفتوحة. حتى السيارات، تقلُّ حركتها. تزحف الظُّلمة الشفيفة والصمت. أبدى الملاحظة لموظفة الاستقبال. قالت: هذه تونس القديمة، الناس يغلقون عليهم أبواب البيوت، أو ينزلون إلى الشوارع والأماكن التي تعرف السَّهر. قال له الصوت الآمر في التليفون: لا تغادر تونس حتى أتصل بك. في اليوم الثالث، أظهر التململ. بدا الصوت حاسمًا: خذْ حريتك ... وسأتصل بك في الفندق.

تسلَّل إلى داخله حزن. نما وكبر، وبدا أشدَّ من أن يحتمله. شعَرَ أنَّه وحيد كما لم يكُن من قبل، ويعاني قلقًا يغيب مصدره؛ فهو يرغب في التحدُّث إلى أيِّ إنسان بما لم يحدِّد طبيعته.

افتعَلَ صداقةً مع موظفة الاستقبال. في حوالي الخامسة والأربعين. تسلَّلت الشعيرات البيضاء وراء الحنَّة الداكنة التي صبغت بها شَعرها. أحاطت غُضون خفيفةٌ بعينَيها وزاويتَي فمها. إذا ضحكتْ بدتْ أسنانها المطعَّمة بقِشرة الذَّهب. ترتدي قفطانًا تبدَّل ألوانه، تضمُّه إلى خصرها بحزامٍ من المُزدان بخيوطٍ مذهَّبة، وتعلِّق في أذنَيها قرطًا كبيرًا من الذَّهب، يُصدر — لأقلِّ حركة — صوتًا كالوسوسة. يجاوز السؤال عن المكالمة التي ينتظرها، إلى الحديث عن أسعار العُملات، وبرامج التليفزيون، وأحوال الجوِّ، والمظاهرات الصغيرة التي تهتف لِفرَق الكرة. ابتسَمَ لرؤية شُبَّان دفعوا أمامهم عنزةً صغيرة لُفَّت بعَلَم عليه كلمة: الترجي. قال شابٌّ لملاحظته المتسائلة: مشجِّعوا النادي الأفريقي، يحتفلون بفوزه على نادي الترجي!

لم تعُد المرأة تنتظر أن يبدأ الكلام؛ فهي تسأل وتنصح، وتُبدي الملاحظات: لماذا لا تذهب إلى البوسعيد ... ضاحيةٌ جميلة للغاية.

هرش قفاه وهو يرنو إليها بنظرةٍ متأمِّلة: هل أستقلُّ تاكسي إلى هناك؟

هزت كتفَيها: القطار أحسن ... المسافة طويلة.

ثم وهي تُزيح خصلةَ شَعرٍ من جبهتها: ليس قطارًا بالمعنى المفهوم. إنه أقرب إلى الترام.

حين أشارت بأن يستقلَّ القطار من المحطة البحرية؛ تصوَّر أنها تقع في داخل الميناء أو في مدخله، لكنَّها بدتْ كالبناية الأثرية بأسقُفها ونوافذها المنزوعة المصاريع وبابها الذي يحدُّه عمودان مرتفعان، وباختلاط اللونَين الأبيض والأزرق، في المثلث المُفضي من جانبَيه إلى طريقَين تشقُّهما قُضبان القطار.

اختار طرَف كرسيٍّ بين ثلاثة ركَّاب؛ إلى جواره رجُلٌ في حوالي الخامسة والثلاثين، دسَّ رأسه في جريدةٍ انشغَلَ بقراءتها. وفي الكرسيِّ المقابِل، فتاةٌ في حوالي العشرين، وشيخٌ تقدَّمتْ به السنُّ؛ فيصعب تحديد عمره. لاحَظَ أنَّ الفتاة تُسند رأسها إلى جوار النافذة وتغمض عينَيها، كأنَّها تستدعي النوم. أمَّا العجوز فقد انصرف إلى كلماتٍ هامسة، كمَن يتلو آياتٍ من القرآن، أو أدعية.

عبَر القطار الكثيرَ من الكباري والأنفاق. وثمَّة الجبال البعيدة، وأشجار الزيتون، ومساحات الخضرة على الجانب المقابل، والبنايات الصغيرة المتناثرة، يتناسَقُ فيها اللونان: الأبيضُ والأزرق. والأُفُق الذي تغيب ملامحه. توقَّف القطار في أكثر من محطة. أعاد

— بينه وبين نفسه — قراءة أسماء المحطات؛ يحاول النطق الصحيح. بناية صغيرة، لها بابٌ واسع يُفضي إلى الطريق، ونوافذ مغلَقة، فيما عدا نافذةً واحدة لقطْعِ التَّذاكِر.

تنبَّه إلى نقرات المطر على زجاج النافذة.

– بدأت الدنيا تشتي.

قال العجوز في صوتٍ أقرب إلى تهشُّم الزجاج: الجو شتاء بالفعل.

استراح إلى الطِّيبة في ملامحه. جسمه قصير مدكوك، شاربه الكثُّ المهوَّش يغطي شفته العليا وجانبَي فمه. يعاني ارتعاشةً خفيفة في يده اليسرى. أرخى على كتفَيه تلفيحةً ثقيلة.

– أقصد …

وحرَّك أصابعه دلالةَ سقوط المطر.

قال العجوز: أهلًا «أبو إسكندر».

واحتضنه بنظرةٍ متودِّدة: من الإسكندرية أنت؟ يقولون عن المطر: الشتا … أمضيتُ هناك أكثرَ من عشرين عامًا.

أدرك أنها تُتابع الحوار من الضحكة التي حاولتْ أن تُداريها براحتها. تناسُق تكوينها الجسدي؛ يقلِّل من الإحساس بضآلة حجمها. عيناها واسعتان يزيد من عُمقهما ظِلال أهدابها. ترتدي بنطلونًا أسود، وسُترةً بيضاء من الصُّوف، وحذاء كوتشي. عقصتْ شَعرها الطويل على شكلِ ذيل حصان، بشريطةٍ بيضاءَ رقيقة. تدلَّت على صدرها سلسلةٌ ذهبية تنتهي بساعة من الذهب، وضمَّت على فخذَيها حقيبةً من القماش.

انسحب الضوء من العربة، عندما دخلتْ نفقًا طويلًا. حلَّ صمتٌ مفاجئ، والْتفَّت الملامح بظُلمةٍ شاحبة، الْتقط وميضُ نظراتها تُحيط ارتباكه بعينَين مشفقتَين.

نزل العجوز والرجل إلى جواره في المحطة التالية. خمَّن اقتراب المحطة النهاية؛ من خلو العربة إلا من بضعة ركَّاب متناثرين.

تمنَّى لو أنَّها من البوسعيد. يسألها عن الضاحية؛ فتَدُلَّه. يُظهر جهلَه؛ فتَعرض مرافقته.

وضع في عينَيه تصنُّعًا بالمسكنة: هل البوسعيد بعيدة؟

دون أن تقابل نظرته: آخرُ محطَّة.

مدفوعًا بما لا قِبَل له على مغالبته: هل هي بعيدة؟

– سأنزل قبلها بمحطة.

لاحظَت ارتباكه، فزمَّت شفتَيها باسمةً: يسرُّني أن أكون دليلك في البوسعيد.
أحسَّ بالندم وهو يقول: قلتِ إنَّ محطتكِ تسبق البوسعيد.
استعاد الأمل في قولها: لا بأس! ... أعود قبل أن يأتي المساء.
وهو يحمل الحقيبةَ عنها، ويتبعها في النزول: اسمي مدحت ... مدحت الخياط.
– مصري؟
أومأ برأسه: أنتظر مكالمةً لأداء مهمَّة ... أعود بعدها إلى القاهرة.
– أنا سُندس ... من صفاقس ... طالبةٌ في معهدٍ بالقُرب من سيدي البو...
أعاد نطق الاسم: البو؟
ابتسمتْ: البوسعيد.

البيوت مساحاتٌ من اللون الأبيض، ملامحها الأبوابُ والنوافذ الخضراء. الأبواب خشبيةٌ كبيرة مُزدانة برُءُوس المسامير في هيئة تكويناتٍ وتقاطعات، أو غُطيتْ واجهاتها بصفائح النحاس المنقوش. الأرض من البلاط الصغير، أو قِطَع البازلت. الشُّرفات من الحديد المنقوش، تحدُّها أُصُص النباتات من كلِّ الجوانب. السلالم الحجرية، تختلط في انحناءات وصعود وهبوط. المقاهي متناثرة في الطريق، وفي الطوابق الأُولى، في أسفل مياه البحر إلى الأفق. والقوارب لملمتْ أشرعتها، واصطفَّت أمام المرسى.

افترَّ فمها عن ابتسامة: اخترتُ أن تكون محطة القطار هي آخر تجوُّلنا؛ لأعود إلى بيت الطالبات قبل المساء.

أردفتْ لتقضي على محاولته في أن يُقنعها بالبقاء: إذا تأخرتُ عن موعدي؛ أبلَغَ البيتُ المعهدَ وأبلَغَ المعهدُ أبي.

قال في تأثُّر: سأعود إلى سجن الفندق.
وران على صوته تخاذُل: أشكركِ على الحُلم الجميل.
زمَّت شفتيها باسمةً وهي تُلاحظ ارتباكه: ربما أُمضي أيامًا عند خالتي في تونس.
ومَضَت في عينَيه بارقةُ أمَلٍ: هذه فرصةٌ لنُزهةٍ مماثلة.
استدرَكَ في نبرةٍ متوسِّلة: لو أردتِ.
وهي تُداري ابتسامتها بقبضة اليد: أين تُقيم؟
– فندق الماجستيك في شارع باريس.
أعطني رقم التليفون ... إذا زُرت خالتي سأتصل بك.

نزل قبل دقيقتَين من الموعد. أقبلَتْ في العاشرة تمامًا من الشارع الجانبي المواجِه للفندق. ترتدي بنطلونًا أسود، فوقه بلوزة حمراء. شدَّت خصرها بحزامٍ عريض من الجِلد، تتوسطه توكةٌ على هيئة وردة، ودسَّت قدمَيها في حذاءٍ ذي رقبةٍ قصيرة.

غالَبَ انفعاله: هل أطلُب تاكسيًا؟

في لهجةٍ مشفقة: وأين أقدامنا؟

ثم وهي تميل ناحيةَ الطريق: النُّزهة لا تصلُح بالسيارة.

سبقتْه بخطواتها الصغيرة السريعة، في امتداد الشارع. أبطأتْ خطوات التأمُّل في شارع الحبيب بورقيبة. نُزل تونس والكاتدرائية والمصارف ومحالُّ الملابس والأشجار العالية المتشابكة على الجزيرة المُزدحِمة بالأكشاك والواقفين.

قلب الميداليات والألعاب الصغيرة في الكشك على ناصية الشارع. قالت وهي تربت يده: هذه أشياءُ تافهة ... وغالية.

مضيا إلى شارع في المُواجَهة أشبَهَ بالأسواق الضيِّقة المتشابكة، الموازية لشارع الميدان. مسقوفة، مزدحمة، تعبق بروائح البخور والعطور والبهارات والشواء. أصداء عبارات البيع والشراء تتردد في الأسقف العالية والجدران المتقاربة.

خمَّن أنها تُشفق على أحواله المادية حين رفضتْ دخولَ مطعم الشِّواء المطلِّ على جامع الزيتونة: السندوتشات تُتيح لنا مواصلةَ الجولة دون توقُّف.

– وإذا حلَّ علينا التعب.

– المقاهي كثيرة ... والشاي التونسي باهٍ!

ألحَّ، فتنازلتْ عن إصرارها، اكتفتْ بطبق «كُسْكُس» في مطعمِ قرطاج. صعدا إليه في الشارع الموصِّل بين شارعَي باريس والحبيب بورقيبة.

البابان المفتوحان المتقابلان في مقهى الشواشية؛ يعلو أوسطَهما قبو. الضوء المنبعِث من فتحتَين أعلى السقف. الأرض من البلاط الملوَّن. والحوائط مزدانة بالموزاييك والفسيفساء. على الجدران صورٌ لمشاهد من تونس القديمة والحديثة، المقاعد من الأرابيسك، وثمَّة رائحةُ بخور تتضوَّع من مكانٍ قريب.

جلسا على الكنبة المستطيلة لصقَ الجدار. القبو يُفضي — من ناحية — إلى شارع الشواشية. ومن ناحية إلى نهج القصبة.

وهو يقلِّب كوبَ الشاي: بدلًا من بيت خالتك ... لماذا لا تقيمين في الفندق؟

أدرك سخافة العرض في ارتجافة شفتَيها. تمنَّى لو أنَّ فمه ظلَّ مغلقًا. أردف ليقضي على سوءِ ظنِّها: كما أرى معظم حجرات الفندق خالية، وأسعاره مقبولة.

انتزعت ضحكة: عند خالتي ... لا أمدُّ يدي في كيس النقود.

أعاد قراءةَ اللافتة الصغيرة على المبنى ذي الطِّراز الإسلامي: زاوية سيدي ابن عروس. ثم مضيا إلى ساحة القصبة، ومنها إلى باب البحر.

أشارتْ إلى التِّرام الذي أنزل سُلَّمه. جلَسَ إلى جوارها في العربة الخالية: إلى أين؟

– نحن نتنزَّه.

أبطأ السير في أسواق جامع الزيتونة والعطَّارين والشواشية؛ الأرض مرصوفةٌ بمستطيلاتِ البازلت الصغيرة. المحالُّ ملأى بالأدوات الكهربائية والساعات وعدسات التصوير وأطباق الصيني وأواني النحاس والذَّهب والفضَّة والحجارة الكريمة والأقمشة والأزياء التونسية والسجاجيد والعِطارة والحنَّاء والشمع والصندل والمكسَّرات. فاصلتْ بائع الملابس بدلًا منه في السوق المركزي، وتأمَّلا الصُّحف المنشورة في الكُشك المجاور للكاتدرائية. وقالت موظَّفة الاستقبال: وصلت مكالمةٌ القاهرة بعد خروجك بنصف ساعة؛ طلب الصوت أن تبلِّغهم بتحرُّكاتك. ووقفتْ إلى جانب الحقائب البلاستيك لصقَ الجدار، حتى صلَّى الظُّهر في جامع الزيتونة، ولَمَحَ ابتسامتها وهو يعدُّ القِباب السبع لزاويةِ سيدي محرز. وراقبتْ تقليبه في فهارس المكتبة الوطنية. وأهمل البائعُ في سوق الشواشية تأمُّلَها الضاحك له وهو يضع الشاشية الحمراء فوق رأسه. وفاجأهما الخروجُ المفاجئ لطلبة معهد بورقيبة بنهج سيف الدولة. لاذا بالباب المغلق لمكتبة ديجول على ناصية الطريق. حدَّثتْه عن حنينها — في بيت الطالبات — إلى أبوَيها وثلاثة أخْوَة يَكبُرونها. وحدَّثها عن توالي الأيام بلا عمل، منذ تخرُّجه حتى استقلَّ الطائرة ينتظر الأوامر في الماجستيك. قال الرجل ذو النظَّارة الطبيَّة في لهجةٍ محمَّلة بالهدوء والحسم: الأوامر هنا لتنفَّذ، لا لتُناقش! تلاحقَت الأوامر؛ لا يسأل، ولا يناقش. حتى تسلَّم جواز السَّفر مطويًّا على التأشيرة وتذكرة الطائرة. تلامستْ أيديهما فوق المنضدة المستطيلة، فسحبت يدَهَا. ثمَّة شيء لا يتبينه، يتولَّد داخل نفسه. تتشكَّل ملامحه وإن بدا غامضًا. لم يناقش الأمر. وما إنها وجدتْ في وحدته ما يدعوها إلى تجربةٍ بلا صدًى، أو أنها أشفقتْ على ظروفه المحيِّرة.

فضَّلَ أن تُوارِب البابَ بيدها، أو يظلَّ مغلقًا حتى لا يتكلَّم، أو يتصرَّف بما يُعيده إلى تواصُل انتظار الأوامر في الفندق.

لحِقَه صوتُ موظفة الاستقبال وهو يهمُّ بركوب المصعد: نسيت المفتاح معك.

أومأ بلهجةٍ مُعتذِرة: هذا صحيح.

– لم تعُد تسأل عن مكالمة القاهرة.
فتَّش عن إجابة، ثم سكت.
هزَّ رأسه مُحيِّيًا، وهو يدخل المصعد.

أشار بنظرةٍ إلى الحقيبة القماش المُدلَّاة على كتفها. كانت ترتدي البنطلون الأسود، والبلوزة البيضاء، والحذاء الكوتشي: هذا المساء ... أعود إلى بيت الطالبات.
علا صوته في اصطدامه بزحام المارَّة: لماذا؟
في نبرةٍ مُحايدة: لا بدَّ أن أعود إلى المعهد.
وهو يُسلم عينَيه إلى شرود: لا بد أن أعود إلى القاهرة أنا أيضًا.
واجهته بنظرة متسائلة: هل تلقَّيتَ المكالمة التي تنتظرها؟
– لا.
– كيف تسافر إذَن؟
زفر في ضِيق: سئمتُ تلقِّي الأوامر.
ثم بصوتٍ هامس: ربما ظَلِلتُ في تونس لو أنَّكِ لم تعودي إلى المعهد.
– أعتزُّ بصداقتك ... لكنَّ إجازتي انتهت.
وومضت على شفتَيها ابتسامةٌ مترفِّقة: أدرس في المعهد، وليس عند خالتي.
همَّ بأن يتكلَّم، يلحُّ؛ فتطيل إقامتها. لكنَّه أدرَكَ من نظرتها الصامتة أنَّ الكلمات لن تُعني شيئًا. مجرَّد ثرثرةٍ لن تغيِّر ما أزمعتْ فعله. لاك في فمه كلماتٍ لم ينطقها. تراجع بعفوية، ومدَّ يده. استبقى أصابعها — لحظات — في يده، ثم مال من نهج سيف الدولة في طريقه إلى الفندق.

القرصان

١

كنتُ واحدًا من ثلاثةٍ وقفوا على باب المطعم، قبل أن يدعوهم الشابُّ، ذو العِصابة السوداء على عينه، إلى الدخول. تظاهرتُ باللامبالاة وأنا أُتابع — بطرْف عيني — اتجاهكم إلى الطاولة التي أجلس فيها. سبق جلوسكم اعتذارَ القُرصان بشغْلِ كلِّ الطاولات.

حين أبديتُ الرغبة في التغيير؛ قال المهندس في قصر الجم: اذهبي إلى القُرصان.

أضاف للدهشة في ملامحي: إنَّه مجرَّد مطعم.

– في المهديَّة؟

– في المنستير ... على بُعد كيلومترات قليلة.

تشاغلتُ بالنظر في الساحة الواسعة أمام المطعم، تحيط البيوت والأشجار بنهاياتها. وخلتْ إلا من سياراتٍ قليلة في الموقف، ومجموعات من السُّياح الأجانب جلسوا على المقاهي المتناثرة، أو افترشوا الأرصفة. أمام المدخل أشجارُ نخيلٍ قصيرة، وما يُشبه الأزيار الهائلة الحجم. الأبواب الزُّجاجية، ونقوش الموزاييك على الجدار، والنقوش على الخشب؛ تعبِّر عن الحياة في البحر. سُفنٌ وقراصنةٌ وصيَّادون وأسماكٌ وطيور. دفعتُ الباب. اخترقتُ الزِّحام إلى ترابيزةٍ في زاويةٍ بأقصى المكان. أدركتُ معنى التسمية، لَمَّا رأيتُ عمَّال المطعم يرتدون زيَّ الصيَّادين، ويضعون على الأعيُن اليمنى عصاباتٍ سوداء. وكلُّ الطعام أسماكٌ على الطاولة الهائلة المستطيلة، أسماكٌ أعرفها ولا أعرفها، والظُّلمة الشفيفة يهَبُها الحياةَ أضواءٌ خافتة، وتنقُّل القراصنة بين طاولةِ الطعام والترابيزات، والأحاديث الهامسة، وأصوات اصطدام الأطباق بالملاعق والسكاكين والشِّوَك.

هدأت النظرات المتطلِّعة، وانشغلتُ بتناول السمك الذي اقترحه الولدُ القرصان، قبل أن تسبق إشارةُ الولد قدومَكم إلى الطاولة، التي كنتُ أجلس عليها وحدي.

رنوتُ إليك بجانب عيني: هل أنت ...؟

الْتقينا في الصباح أمام كاونتر الاستعلامات في فندق توب كابي بيتش. تركتُ مفتاح حجرتي في الفندق، وكنتَ تملأ بطاقة الإقامة. شيءٌ ما اجتذبني في ملامحك، أو في نفاذ نظرةِ عينَيك.

تحدَّثتُم — باختلاطِ العامية المصرية والتونسية — عن محاضرةٍ في المكتبة العامة بالمهدية، وندوةٍ في المندوبية الجهوية للثقافة، وعن وسامٍ أهداه لك مُحافِظُ المدينة، وزحامِ الفنادق، وكُتبٍ تبادلتُم قراءتها، ورسائلَ تتوقَّع وصولها من القاهرة. حدستُ أنَّك أديبٌ مصري، تكتُب القصة أو الشعر. اسمك منير، اندغَمَتْ في سمعي بقيَّة الاسم. قدِمتَ إلى تونس والمنستير والمهدية لإلقاء محاضرة، والمشاركة في ندوات. تشاغلتُ بتناول الطعام، وإنْ أصختُ سمعي. أسمر البشرة ذو النظَّارة الشمسية — ناديتُماه باسمه مولدي — أظهَرَ التململ، وحرص على الهَمْس. أمَّا أنت والآخر ذو النظَّارة الطبيَّة والصَّلَع الزاحف على مقدمة الرأس والملامح الباسمة والحقيبة الجلدية التي لا تفارقه — تكرِّر قولَك له: يا دكتور بدوي — فقد انصرفتما إلى الكلام، كأني لا أشارككم الجلوس على الطاولة. أهديتَه ديوانًا شعريًّا أو رواية، وأهداك كتابًا عن رواية الأرض. أذكُر الاسم؛ لأنِّي شاهدتُ الفيلم المأخوذ عنها.

٢

تعدَّدت لقاءاتنا في مدخل الفندق، في الصالة الواسعة، في المطعم. ربما جلستَ في ركن الصالة تتصفَّح الجرائد، أو تقرأ كتابًا. نتبادل التحيَّة بهزَّة الرأس. أطمئنُّ إلى ابتسامتك الهادئة، لكنَّني أخمِّن انتظارَك لصديقَيك. أكتفي بإيماءةِ التحيَّة، وأتَّجه إلى المطعم، قبل أن أصعد إلى حُجرتي. أُغادرها — في الصباح — إلى ترميمات قصر الجم.

٣

– صباح الخير.

أربكتْني المفاجأة، فاكتفيتُ بهزَّةٍ من رأسي، حدستُ أنَّك سبقتَ صديقَيك في النزول إلى المطعم، أو أنَّهما لا يحتاجان إليه. وضعتَ الطبق، فوقه مكعب زُبد وقِطَع جبن

وحبَّات زيتون وعسَل نحل وكرواسون وشطيرتا خبز. اتجهتَ ثانية إلى الطاولة الزجاجية المستطيلة. عدتَ بفنجان الشاي بالحليب.

كانت أول مرَّة نجلس فيها بعيدًا عن مطعم القرصان، أو الحديقة، أو صالة الاستقبال الواسعة؛ فنكتفي بإيماءة التحية. حاولتُ — أَثِقُ أنَّ هذا ما كان يشغلك — أن أقول شيئًا، فاتحةً للحديث بيننا.

لاحظتَ كثرة تعاطيَّ للأدوية في أثناء تناول الطعام. أفتح حقيبةَ اليد الصغيرة. أفتِّش عن دواء بالذات. أنفض الحبَّة من الشريط ويدي تمتدُّ إلى كوبِ الماء.

قلتُ لنظرةِ الدَّهشة: مجرَّد أدويةٍ مهدِّئة.

نطقتْ ملامحك بالإشفاق: هل أشار بها الطبيب؟

– طبعًا ... أُعاني تعبًا.

قلتَ في ملامح الإشفاق: تجنَّبي الإرهاق ... تستغنين عن مشُورة الطبيب ... وعن الدواء.

غالبتَ الارتباك: ربما لم أحسن التكلُّم.

بدا الْتقاط طرَف الخيط صعبًا. مجرَّد الإيماءة تُشير إلى معانٍ غير مقبولة. ما أحياه أُعانيه وحدي. حتى الطبيب قدَّم نصيحته دون أن يشغله ما قبل، ولا ما بعد.

كنتُ قد عانيتُ ما لا قِبَل لي على احتماله. لم أرفع إصبعي من فوق جرس العيادة؛ حتى لا أنكص عائدة. تداخلت الكلمات ومحاولة التعبير بيدي وملامح وجهي. ظلَّ الطبيب على صمته، حتى لم أعُد أجِدُ ما أقوله.

وهو يتَّجه ناحيتي بنظرةٍ متأمِّلة: هل أنت متزوجة؟

قاومتُ الانفعال: هل هذه مشكلة سيدة متزوجة؟

هزَّ رأسه دلالةَ الفهم. قال: لا بد إذن من تصحيح الأمور.

– ماذا تقصد؟

– الزواج!

أهملتُ — لتفاهة سبب الطلاق — فكرةَ الزواج ثانيةً. شغَلَني التنقُّل بين مناطق الآثار، وتأمُّل الحجارة المنقوشة والمقرنصات والمرمر المنحوت والنحاس والحديد المطروق والأجساد المبتورة وارتفاعات الرُّخام الأبيض والبازلت الأسود، والتأكُّد من التواريخ، والإشراف على عمليات الترميم، والنزول على السلالم الدائرية، والسَّير في موازاة السُّور القديم، وفي الأقبية والدهاليز والممرَّات، وفي الشوارع القديمة.

قلتُ: الزواجُ مشروعٌ قديم ... مات!

– هذا ما تتصوَّرينه.

– جئتُ للعلاج وليس للنصائح الشخصية.

– نصيحتي هي العلاج.

قبل أن أُغادر العيادة، اتَّجهتُ إلى البهو المُفضي إلى المصعد. زادت الرعشة التي تملَّكتْ حتى أطراف أصابعي. ضاع السبب. تمنيتُ لو أني أعود إلى البيت. أهملتُ الاحتفاظ بالمنديل؛ فمسحت العرَق من جبهتي بظاهر كفِّي. توقعتُ — إن انتظرتُ المصعد — نظراتِ الفضول، فاتَّجهتُ إلى السُّلَّم. ترددتُ قليلًا على باب العمارة المطلَّة على شارع الحبيب بورقيبة. عدلتُ — بعفويَّة — ياقةَ التايير. تذكرتُ أنَّ النظارة الشمسية مُودعة في حقيبة يدي؛ فداريتُ تحيُّر نظرتي، ومِلتُ من الشارع المجاور للكاتدرائية، أختصر الطريقَ إلى نهج سيف الدولة.

قلتُ: هل أنت طبيب؟

هززتَ رأسك بالنفي.

– تصورتُ أنك كذلك.

تركنا أقدامنا تجول بنا شوارعَ المنستير. اخترقنا الأسواق؛ أُبطِئ من خطواتي، فتتأمَّلُ الزرابي والصناعات الخشبية والنحاسية، وصناعة الجلود ومنتجات الخزف، والآلات الموسيقية، والحرير، والتطريز. ألمح بجانب عيني تأمُّلَك للنساء يرتدين الجبَّة والحائك، والعباءة الصوف. مقبرة الحبيب بورقيبة في نهاية ساحةٍ هائلة مُبلَّطة بالرخام، على جانبَيها مئات القبور لمواطنين تونسيين، المبنى الرخامي، والقبَّة المُذهَّبة، والملاحظات الهامسة، وومضات عدسات التصوير، وتلاوة القرآن من المصحف الكبير المفتوح على حامل.

شدَّني اهتمامك بقراءات التاريخ والحكايات القديمة والسِّيَر والملاحم، وما جرى في البنايات المتهدِّمة، وحياة القصور قبل مئات السنين، ومحطات القوافل بين مصر والمغرب، والمعارك والدسائس والاغتيالات.

قلتَ ونحن ننزل من الدرجات الرخامية: أحبُّ المنستير فأشرف بنفسه على إقامة مقبرته فيها.

استوقفتك الكلمات: هو الذي أشرَفَ على بنائها.

– كما ترى فهي أفخم من قصور الدُّنيا.

أردفتَ في تنبُّه: ظلَّ يُختار الرئيسَ الأولَ من المنستير ثلاثين عامًا متوالية.

وأعدتَ القول: كان يحبُّها!

لَا دعوتُك إلى زيارة مقابر المهدية؛ فلأني كنت أَثِقُ أنَّك ستأتي وحدك. صديقاك من المهدية والمنستير. المواقع الأثرية: المقابر والقلاع والروابط والحصون والجوامع والقصور والبنايات القديمة، من مألوف حياتهم اليومية، يرونها، ويترددون عليها.

تنقَّلنا بين المقابر المطلَّة على البحر المتوسط. بقايا البوَّابة الحجرية القديمة كأنها المدخل إلى المدينة، أو المَعبر إلى الجانب الآخر من البحر. لم أتصوَّر انشغالك بالتفاصيل الصغيرة. هل للصلة — كما قلتَ — بين أول مدينةٍ فاطمية والغزو الفاطمي لمصر؟ … هذه المقابر أُقيمت — بالفعل — على أنقاضِ أول مدينة للفاطميين. مثَّلتْ — لأعوامٍ — خطَّ الدِّفاع الساحلي عن الإمبراطورية الناشئة.

اتجهتَ بنظرتك إلى أفق البحر: لو أنَّ جَدَّكِ رحَلَ مع حملة الفاطميين إلى مصر … ربما تزوَّج من مصريةٍ هي جدَّتي.

وضحكتَ: نحن أقاربُ إذن.

غالبتُ التردُّد: هل عملك أديب؟

– تقصدين: هل الأدب هو العمل الذي أحيا منه؟

أومأتُ برأسي.

– أنا مهندس كهرباء … لكنني أكتُب القصة.

ووشى صوتك بالضيق: من الصعب في وطننا العربي أن يحيا المرء من كتابة القصة.

حدَّثتَني عن صديقَيك: مولدي فروج، طبيب في المستشفى العام بالمهدية، وشاعر؛ ومحمد البدوي، أستاذ جامعي، وناقد. صداقةُ الزيارة الأولى كأنَّها امتدادٌ لصداقة زياراتٍ سابقة. أبديتَ التأثُّر لقول مولدي فروج، وهو يعتزُّ بقَطْع إجازته والعودة إلى المستشفى: أوحشني قولُ المرضى الله يرحم والديك! تكلَّمتَ عن إعجابِ البدوي بقراءاتِ المُصادفة من القاهرة: هي أفضل ممَّا تمتلئ به الدوريات والصُّحف. داريتَ ابتسامةً للرأي الذي نقلتَه عنه: ينبغي أن نستبدل بمواقع الخريطة الأدبية المصرية مواقعَ أهمَّ. كأنَّك تحدِّثني عن خرائط القِلاع والحصون والمقابر والروابط والقصور التاريخية. ما أراه، وأتحدَّث عنه، في عملي. ملأت البسمةُ وجهك؛ لقول الموظَّف وأنت توقِّع في دفتر الزيارات: أنت أول مصري يزور المتحف. زُرنا قصر عبيد الله، وشواهد قصر القائم بأمر الله، والرباط، والبرج الأثري، وقصر الجم، وحوض المرسى القديم، والجامع الكبير، ومقامات الأولياء، وبقايا السُّور البحري، والمدينة العتيقة.

أعدت التسميات: باب زويلة ... باب النصر ... السقيفة ... تركت هذه الأماكن في القاهرة.

قلتُ لك: أعرف أن باب زويلة في القاهرة يقتصر على التسمية ... باب زويلة عندنا يُفضي إلى مدينةٍ أكبرَ من المهدية.

وأَشَحتُ بيدي إلى الوراء: المدينة القديمة، لم تعُد موجودةً ... في موضعها الآن زويلتان حديثتان.

عندما أمسكتُ بالعدسة لألتقط لك صورةً أمام نافورة المياه في سقيفة الكحلاء، داخَلَني إحساس أنني أَقِف إلى جانبك، في الصورة نفسها.

٥

كيف حدَثَ ما حدَثَ؟

تصورتُ — بعد عودتي إلى تونس — أنِّي نسيت المهدية وفندق توب كابي بيتش ومطعم القرصان والرباط وقصر عبيد الله والمتحف والسقيفة وقصر الجم، والمهندسين والعمَّال، وعمليات الترميم.

كالمفاجأة، كاللقاء المصادفة في انحناءة طريق؛ طالعتْني القامة الطويلة والعينان النفَّاذتا النظرة والصوت الهامس. أستعيد لقاءاتِ مقابر المهديَّة والرباط وقصر الجم والقرصان، ومولدي فروج ومحمد البدوي، وشوارع المنستير والأسواق القديمة والمقاهي، وتلاوة القرآن في مقبرة الحبيب بورقيبة. أسأل وتُجيب. تسأل وأُجيب. هذا هو ما أريده. لا صلةَ لنصيحةِ الطبيب بما أحياه. أرفض النصيحة؛ لأنِّي أحبُّ الوردة في غصن، ولا أحبُّها في صورة. أرفض السخف فيما قاله الطبيب. لا تشغلني الفكرة؛ تشغلني المشاعر التي تصخب في داخلي. أفكِّر فيك؛ لأنَّ هذا هو ما أريده. أحبُّك؛ لأنِّي أحبك. اختُزلت المواقف والأشياء والسِّحَن والتصرفات، في عينَيك الملتمعتَين الباسمتَين وأسئلتك وإنصاتك الملحِّ واهتمامك بتلك البدايات في المهدية؛ قبل أن تنتقل — بكلِّ حياتها — إلى القاهرة.

البيت الفرنسي

انظرْ من النافذة العلوية؛ تطلَّ على أسطح البيوت المجاورة الواطئة. خلَتْ ممَّا يشغلها أو يميِّزها. يمتدُّ الفراغ من آخر الأسطح إلى مواجهة قصر العَلَم، وامتدادات بناياته إلى الخليج المترامي في الأفق. يعلوه العَلَم ذو الألوان الثلاثة والخنجر. وثمَّة بيوتٌ من الطين، تناثرتْ في مساحات الخَلاء، طُليتْ بالجصِّ والقشِّ، وسُدَّت أبوابها وثغراتها بالحصير والستائر المجدولة من قِطَع القماش الملوَّن. وفي اليمين قلعة الجلالي تطلُّ على جامع الخور. ارتفاع مئذنته؛ إلى مستوى الجبل الذي شُيِّدت فوقه قلعة الميراني. وفي الخليج سفُنٌ صغيرة متناثرة، تدور حول بدايات الجبال المتصاعِدة من قلب المياه، تعلوها بيوتٌ أشبه بالقلاع أو الحصون.

قلت: هل تطيب لك الإقامة في مسقط؟

زوى ما بين حاجبَيه: أنا لا أفعل شيئًا.

ثم في صوتٍ مُتلكِّئ: أنام وأصحو وأقرأ وآكل وأتجوَّل في الشوارع.

– أليس لك عمل؟

افترَّ فمه عن ابتسامة: أحيا مع ذكريات ميشيل.

ووشَّى صوته بتأثُّر: هذا هو عملي.

ثم وهو يضغط بآليةٍ على قنطرة نظَّارته الطبيَّة: القانون يأذن بالسفر إلى بلدٍ من العالم الثالث في فترة التجنيد … درستُ العربية، فأتيت إلى هنا.

الْتقيتُ به — للمرة الأُولى — بالقُرب من الباب الكبير، المفضي إلى داخل مسقط القديمة. بدَت المقارنة في تنقُّل نظرته بين خريطة الكتاب والمشهد أمامه. تشجَّع — ربما — بارتساماتِ الفضول في ملامحي: هل أنت عمَّاني؟

قالها بعربيةٍ تشُوبها لُكْنةٌ أجنبية. وأشار إلى القميص والبنطلون: أنت لا ترتدي الـ... أكمَلَ المعنى بيدَيه، تصنعان انسدال الدِّشْدَاشَة.

قلتُ: أنا مصري.

– وأنا فرنسي.

ومدَّ يده مُصافِحًا: هذا هو يومي الثالث في مسقط.

في حوالي الثانية والعشرين. انزلقتْ قبَّعة الخوص على مؤخرة رأسه؛ فبدا شَعرُه الأصفر المهوَّش. وجهٌ مستطيل أبيض، وإن مال إلى الشُّحوب، وأنفٌ حادٌّ، مقوَّس قليلًا. تطلُّ من وراء النظَّارة الطبيَّة عينان خضراوان، عميقتان. وثمَّة ابتسامةٌ واسعة سخيَّة، تملأ الوجه كلَّه. يرتدي بنطلون جينز، وقميصًا مقلَّمًا، أهمَلَ ياقته؛ فتكرمشتْ واتَّسخت. تتدلَّى من فوق كتفَيه حقيبةٌ جِلديَّة، ويدسُّ قدمَيه في «نعال» ممَّا يرتديه العمَّانيون، ويُكثر من إعادة النظَّارة المُنزلِقة على الأنف إلى موضعها.

مضتْ خطواتنا — بتلقائيَّة — في الشوارع الضيِّقة. أعرف من الفرنسية، ما يُعينني على الفهم. الأشهُر الثلاثة التي أمضيتُها في مسقط، أتاحتْ لي الإجابة عن أسئلته. أوضحتُ ما استلفَتَ تأمُّلَه. الأسوار والباب الكبير والباب الصغير وباب المثاعيب والمقابر أعلى التلِّ الترابي والسوق الخشبي وبيت السيد نادر والسفارة الإنجليزية والطريق إلى سداب والروائح المتضوِّعة في الجوِّ.

عند انحناءه الطريق، أشار إلى بيتٍ بالقرب من زاوية السُّور، ومن الباب الكبير. يعلو الفضاءَ وراءه برجٌ مستدير، يندغم مع امتداد السُّور.

البيت بارتفاع خمسة أدوار، النوافذ الخارجية على شكل عُقود ومُقَرْنَصات، ويُحيط بالسطح درابزين خشبي، والنحت الخشبي على الأبواب والجدران. يطلُّ على حديقة متشابِكة الأشجار. وعلى اليسار، مبنًى منخفضٌ بارتفاع الطابق الأول، صُنع بابه ونوافذه من خشب الساج.

– البيت قديم. كان مسكنًا للقنصل الفرنسي في مسقط ... لم يعُد يسكنه الآن سواي وثلاثةٍ من الهنود ينصرفون بعد وقت العمل.

واصطنع ابتسامة: يسمِّيه الناس البيت الفرنسي.

قاعة الدور الأرضي، كأنها بَهْو فندقٍ كبير. يتوزَّع في وسطه وأركانه، أثاثٌ حديث فرنسيُّ الطِّراز. فُرشَت الأرضُ بالسجاجيد الفاخرة. والإضاءة خافتةٌ، وثمَّة نوافذ زجاجية بامتداد الردهة المطلَّة على الجانب، تَبِين من وراء الستائر المُسدَلة. وفي نهاية القاعة بابان

مفتوحان، يُفضيان إلى مكاتب وأرفُف، صُفَّت عليها مجلَّدات. وعلى الحوائط الخالية من النوافذ لوحاتٌ تآكلتْ حوافُّها، عن مسقط القديمة، يتخلَّلها أقنعةٌ ورماحٌ أفريقية وقُرون حيوان. وأوسط السقف مروحةٌ لا تعمل، وإن تعالى هدير المكيِّفات.

في الأيام الأُولى، لم يكُن يُطيق الحياة في المدينة ذات البيوت القديمة المتلاصِقة، والظُّلمة التي يفرضها ضيق الشوارع، والمصاطب أمام الدكاكين، والدشاديش، والألحفة، وهمود الحركة، وروائح الطعام والبخور والزيت الذي يضعه الهنود على أجسادهم.

– أَلِفْت بعد ذلك ما في المدينة من غرابة.

ورفع عينَيه في تثاقُل: ولعلِّي أحببتُها.

تعدَّدت زياراتي له في البيت الفرنسي، وزياراته لي في فندق الكورنيش المطلِّ على سُوق السَّمك بمطرح، وتعدَّدَت لقاءاتنا في شوارع وأزقَّة مسقط القديمة. أُمضي اليوم أحمل الخرائط والكاميرا، أطيل التوقُّف أمام كلِّ ما أرى أنَّه يصلُح للتصوير. أختار الزاويةَ والكادر ودرجة الضوء والظلال. أحرص حتى على سقَّاطات الأبواب والمُقَرنَصات والنقوش والزَّخارف الخشبية، وعلى مواضع التآكل، وتساقُط الطِّلاء، وبُقَع المِلح، والصَّدأ في النوافذ الحديديَّة، بتأثير رطوبة الخليج القريب، وما ترسمه من أشكالٍ وتكوينات.

عملي أن أسجِّل مسقط القديمة في صورٍ، قبل أن تبدأ البلدوزرات والمعاوِل في إزالتها. مسقط الجديدة — خارج الأسوار — امتداداتها إلى مطار السيب. ميادين ودوارات وشوارع وجسور وبنايات عالية وأحياء موجودة في الخرائط، وإن لم يبدأ إنشاؤها في مساحات الخَلاء.

قلتُ وأنا أنفض العرَق من جبهتي: بدأ الحرُّ ولم ينتصف مارِسُ.

وتلفَّتُّ — بعفويةٍ — حولي: سأحاول أن أنتهي قبل مايو … قيل لي إنَّ الصيف شديدُ الحرارة.

وافقتُ على ملاحظته برماديَّة المكان في مدخل الباب الكبير. لم أقتصر على فلاش الكاميرا. لجأتُ إلى مساحة الضوء؛ تبرُز التكوينات والتفاصيل الصغيرة. أَلِفَ إنصاتي لملاحظاته عمَّا يجب تصويره، وزاوية الالتقاط الصحيحة.

قال: أنا أبعث بصور كثيرةٍ إلى ميشيل.

أضاف للسؤال في ملامحي: إنَّها فتاتي.

لاحظ استجابتي المتابِعة: شقَّتها أمام شقتي … في ضاحيةٍ قريبة من باريس.

تناثرتْ كلماته عن ميشيل. استجابته لأسئلتي، وربما استمتاعه بها، قرَّبني من الحياة في باريس: الميادين والشوارع والأسواق والمقاهي وحركة المرور ولوحات الفنانين على كورنيش السين، وأكشاك الكتب والصحف في نواصي الطُّرق. أتخيَّل — من أحاديثه — ملامحها: القائمة الضئيلة المتناسِقة. الشَّعر الحِنطي الناعم المُنسَدِل على الكتفَين، يتطاير مع حركة الرأس السريعة. العينَين البنيتَين الواسعتَين، تظلِّلُهما رموشٌ طويلة. الغمَّازة أسفل الذقن، تُضيف إلى ملاحة الوجه. العِطر الذي تحرص عليه، يتسلَّل في داخله بالنشوة. الطبيعة القلِقة. العفويَّة في الكلام. حبُّها للسَّهر والغناء، ولأفلام آلان ديلون وجان بول بلموندو وكاترين دينيف، وتفضيلها لفرانسواز ساجان على كتَّاب الرواية الجديدة. حتى برامج التليفزيون أتمثَّلها من جلساته مع ميشيل، في غرفته المطلَّة على سُوقٍ للخُضَر.

– هل هو سوق مهمٌّ؟

– أبدًا ... هو مجرَّد سوق ... تطلُّ عليه شقَّة أُسرتي ... في الطابق نفسه شقَّة ميشيل.

ثم وهو يفرد يدَيه، يحتضن ما لا أراه: إنَّها صديقةٌ قديمة.

لاحَظَ اتجاه نظرتي نحو التمثال الخشبي الذي توسَّط كومودينو في رُكن الحجرة. عربيٌّ يرتدي الدِّشْدَاشَة، ويضع على رأسه العِقال: إنَّه يذكِّرني بابتعادي عن فرنسا.

أُغمض عيني وهو يحدِّثني عن الحياة في باريس. تتشابك الصُّور في حكاياته، وما قرأتُه في الصُّحف التي استعرتُها منه. يختلط ما أتخيَّلُه، بما أحياه، وما أحنُّ إليه. ميدان الشانزلزيه وميدان أبي العبَّاس وقلعة الميراني وقوس النصر، ورسَّامي البورتريه على كورنيش السين، وأهازيج السحر من مئذنة سيدي علي تمراز، وصلاة الشيعة في جامع الرسول الأعظم، وسُوق نور الظَّلام، وباعة السَّمك في مطرح، وحلقة الأنفوشي، وبرج إيفل، وصيد العصاري في الميناء الشرقي، وقلعة الجلالي، وبقايا سجن الباستيل، والموالد، والأذكار، وقصر فرساي، وشارع الميدان، والبوليفار، والمسلَّة المصرية، ومونمارتر، وبيوت جريزة وثويني بن شهاب، والزَّواوي، وميدان الإتوال، وقلعة قايتباي، وكنسية نوتردام، ومتحف اللوفر، والمتحف الروماني في طريق جمال عبد الناصر، والمشربيات، والشُّرفات الحجرية ذات النقوش والثقوب، بدلًا من النوافذ في واجهات البيوت الحديثة.

تبيَّنت أنَّه يكتفي بجلساتنا في البيت الفرنسي؛ لِمَ لا يزورني في فندق الكورنيش، ولا ألتقي به داخل أسوار مسقط. لم يعُد أونوريه الذي أعرفه. بدا مهمومًا ومتخاذِلًا. لاك في فمه كلماتٍ، ينطقها. غير قادر على الكلام، أو أنَّه لا يريده. أَغمَضَ عينَيه؛ ربما ليفرض التركيز، ثم فتَحَهما وسرح في الفضاء. ظلَّ صامتًا؛ فاستحثثتُه بنظرةٍ مشجِّعة.

وشَتْ لهجته بملل: توالي الأيام يتشابه ... لا توقُّع، ولا تنبُّؤ.

واستطرَدَ في صوتٍ مُختنِق، كمَن يهمُّ بالبكاء: كما ترى ... لا أجِدُ شيئًا أفعله.

– والقراءة ... أليست فعلًا؟

– تنقلني إلى فرنسا ... وإلى ميشيل.

– توحَّدت لديك؟

وهو يخبط فخذه بكفِّه: ربما!

عاودت التأكُّد من وقفته — بعد طول غياب — في بَهْو الفندق. تماوَجَ الضوء والظلُّ على ملامحه، في تلفُّته المرتبِك أولَ الطُّرقة المُفضية إلى المطعم. وشتْ ارتجافةُ صوته بما يُعانيه.

– أريد أن أعود إلى باريس.

لاحظتُ أنه يتعجَّل انتهاء الجرسون من وضْعِ الصينية فوق الترابيزة الرخام، عليها إبريقُ ومياهٌ ساخنة وفنجانان وأكياسُ شايٍ وسُكَّريَّة.

– ما يمنعك؟

– أقضي فترةً مثل التجنيد.

واختلج أنفه: وجودي هنا تكليف.

ثم وهو يَزفِر: هذا جزاء تعلُّمي العربية.

ميشيل سلسلةٌ لا نهاية لحلقاتها. حكايةٌ تتولَّد منها حكايات. يُعيد تأمُّل الأسطر على ورقةٍ صغيرة، أشبهَ بورقةِ كرَّاسة.

– هل فقَدَت الأملَ من عودتي؛ لِمَ تخاطبني في كل رسائلها بهذه الكلمات: أنت تحبُّ فينبغي أن تفهم ظروف مَن تحبُّ، مفروضٌ أنَّ حبَّه سكَنَ قلبك. لو أنَّها ... وماذا بعد؟

كان الوقت ظُهرًا. وَشَى الصمتُ بخلوِّ البناية. أُسدلَت الستائرُ على النوافذ الزجاجية؛ فلَمْ يعُد إلا الضوء الخافت من غرفة المكتبة. أعاد الصدى ندائي باسمه. صعدتُ الدَّرج الخشبيَّ ناحيةَ اليسار أُغالِبُ الظَّلام بخطواتٍ حذِرة. مسحتُ الحجرات المُوصَدة والمفتوحة، يسودها السكون والرَّمادية الشفيفة. وثمَّة تيارُ هواءٍ يصطدم بساقَيَّ من موضعٍ لا أتبيَّنه. كتمتُ الصَّرخة — بتلقائية — لرؤيته وهو يضغط — بقبضتَيه — على تمثالِ العربيِّ ذي الدِّشْدَاشَة والعِقال.

طالتْ وقفتي. لم أتصوَّر أنَّه يراني؛ لكنَّه توقَّف عمَّا يفعله. أخلَى يدَيه من التمثال. أدركتُ أنَّه أحسَّ بوجودي، لمَّا أدار رأسه ناحيتي. اكتستْ ملامحه الهادئة شراسةً غريبة. انزلقَت النظَّارة الطبيَّة — بالانفعال — على أنفه. دفَعَها بإصبعه، ورماني بنظرةٍ غامضة، لم أقوَ على مواجهتها.

ونس

تشاغَلَ بتأمُّل خطواتها في الردهة المستطيلة. وضَعَت الفازة الخزفيَّة على ترابيزةٍ صغيرة في رُكن الردهة. تقلَّصت ملامحها بما يعكس التخوُّف من أن تصطدم الأقدام بها. مسحَت المكان بعينَين متنبِّهتَين. أمسَكَت الفازة. ظلَّت تُفاضِل بين قِطَع الأثاث، ثم وضعتْها فوق البوفيه ذي الضلفتَين الزُّجاجيتَين. صفَّت في داخله كُئوسًا وأكوابًا وتماثيلَ صغيرة. تبيَّنتْ أنَّ الفازة أخفتْ صورةً لهما عندما رافقتْه إلى البعثة الدراسية. وضعَت الصورة في الأمام.

أشار إلى شرخٍ متعرِّج في زاوية الصالة: لم أرَ هذا الشرخ من قبل!

– ربما لم تلحَظه ... لكنَّه موجودٌ من فترة.

قالت وهي تنظُر إلى أسفلِ حامل التليفون: هل اتصلتَ بأحد؟

رفع عينَيه في تثاقُل: ماذا؟

– هل استعملتَ التليفون؟

وهو يهزُّ رأسه: دقائق ... أبلغتُ المكتب بإنهاء أوراق مهمَّة.

– ألَمْ نتَّفق على الابتعاد عن كلِّ شيء؟

قال في لهجةٍ تبريرية: إنَّها أوراقٌ عاجلة.

هزَّت إصبعها: جِئنا إلى العجمي في الشتاء لنحيا بمُفردنا.

وشى صوتُه بانفعال: لم أتصوَّر كلَّ هذا الصَّمت. نحن في مقبرةٍ مُؤثَّثة!

راقتْ له الفكرة، يقضيان أسبوعًا في الشاليه القريب من شاطئ البحر. يخلوان إلى نفسَيهما. لا أصدقاء، ولا إذاعة، ولا تليفزيون، ولا صُحف. حتى ما يحتاجانه من طعام؛ يأخُذانه قبل أن يُغلِقا عليهما بابَ الشاليه. وجَدَ في اقتراحها ما يُعينه على مراجعةِ الأمور والتأمُّل، وتبيُّن الصوابِ والخطأ.

مع أنه قفَزَ — بتلقائية — فوق السُّلَّمة المكسورة، وهو يصعد إلى الباب الخارجي؛ فإنه أحسَّ بالغربة في تأمُّله للشاليه. غِلالات شفيفة، سحبتْ وراءها الصُّور في ذاكرته. لم يألف الشاليه في البداية؛ كان قد مضى عامان على زيارتهما الأخيرة له. قدِمَا إليه — مثل كلِّ مرَّة — بمفردهما. فاجأهما انقطاعُ حرارة التليفون؛ عاد بالسيارة إلى أول الحيِّ، صحِبَ عاملًا أعاد الحرارة ... انشغل — في اللحظة التالية — بمخاطبةِ أهلٍ وأصدقاءَ في الإسكندرية، وخارج المدينة.

كان البحر في امتدادِ الأفق، يجلس في الفراندة المجاوِرة لباب المَدخَل. يقرأ ويتناول الطعام، دون أن يُعاني نظراتِ فضول. تناثرَت الشاليهات — فيما بعد — وموادُّ البِناء والمخلَّفات في المساحات الخالية. تخلَّلتها الشوارع المُتقاطِعة. أهمَلَ — موضعه القديم، واكتفى بالجلوس في داخل الشاليه. يترامى — من النافذة المفتوحة — هديرُ الأمواج، واختلاطُ رائحة اليُود والمِلح، وأصداء أجهزة الراديو والتلفزيون والمناقشات من الشاليهات القريبة، واحتكاكات الأقدام في نِثار الحصى، ونداءات الباعة في أشهُر الصيف.

مضت إلى المطبخ الذي تطلُّ نافذته على ساحةٍ أحاط بها سُور. عادتْ بإبرةٍ وخيطٍ. جلستْ على رُكبتَيها بجوار الكنبة. حاولتْ أن ترتُق التمزُّق في جانب المَسنَد.

تأمَّلها بجانبِ عينه. قميصُ النوم الواسع من القطن الأبيض، بأزراره المقفولة حتى الرقبة؛ لم يُخفِ القامة الأقرب إلى الهُزال، وتباينَت التجاعيد في الجبهة وحول العينَين والفم، مع الشَّعر المصبوغ بالسَّواد. وثمَّة زغبٌ خفيف فوق شفتها العليا. وتقاطُعات من العروق الزرقاء، تبدو تحت البشرة، وإن ظلَّت ابتسامتها السخيَّة تملأ وجهها كلَّه.

– هل تحبِّينني؟

توقفتْ عن الرتْق: ماذا قلتَ؟

– هل تحبِّينني؟

أسندتْ جبهتها إلى ظاهر كفِّها: ياه ... تسألني بعد هذا العمر؟

وهو يغتصب ابتسامةً: أعترف أنِّي أتعبتُكِ أحيانًا.

أدار المفتاح في الباب. فاجأتْه وقفتُها إلى جوار البوفيه، بيدها تمثالٌ صغير من الرخام، انعكستْ رؤيتها له. هزات متوالية للتمثال، ثم أعادته إلى موضعه فوق البوفيه.

قالت في صوتٍ ممزَّق: لو أنك تأخرتَ لحظةً؛ كنتُ سأحطمه.

تكلَّمتْ عن الوقت الذي يمضي بلا معنى، والوحدة. وتكلَّم عن ظروف العمل، والقارب ذي المِجْدافين، والمستقبل.

اختلج أنفه: حلبة السِّباق كانت بلا أفق.

رفعَت الصورة أمام عينَيها، بحيث يراها في جلسته وراءها.

– لم يكُن قد حصَلَ على الإعدادية.

تلاحقَت، واختلطت، في ذهنه عشرات الصور: تشبُّثه بساقَيه وهو يصرخ بعد أن تركه في بداية يوم الدراسة الأول، تحطُّم مصباح الصالة بقذفه الكُرةَ، تلويحة يدِه وهو يمضي إلى الصالة الداخلية بالمطار.

– أكبر أولاده الآن في هذه السِّن.

التمعت عيناه بوميض التذكُّر: كنتُ أعيب عليه قلةَ رسائله؛ فانقطعتْ.

– الحياة في أمريكا تختلف عن الحياة هنا ... مَن لا يعمل يموت!

قبل أن يميل إلى داخل الدائرة الجمركية، أشار إليه بأصابعَ ثلاثة؛ ففهِمَ المعنى. طالَبَه برسالةٍ كلَّ أسبوع؛ فوعَدَه بثلاثة. بادَلَه تقبيلَ أطراف الأصابع، وقذْفَ القُبْلةِ في الهواء. توالَت الرسائل منتظِمَةً كما وعَدَه، ثم تباعدتْ، ثم تباعدتْ، حتى اختفتْ تمامًا.

– لماذا ابتسمتَ؟

– وهل ينبغي أن أحزن؟

– أبدًا؛ ابتسمتَ فجأةً.

ثم في لهجةٍ حانية: هل تذكرتَ شيئًا؟

قذفتْه الدرَّاجة في اصطدامها بسُور الحديقة؛ صرخَت الأمُّ من الخوف. لم يقوَ على كتْمِ ضحكته لرؤية الصغير ذي السنوات الستِّ. لا يَبين من الماء المختلط بالطين سوى الْتماع عينَيه وبياضِ أسنانه.

تنهَّدَ: شقاوة طفولته، لم تكُن تنبئ بالتعقُّل الذي صار عليه.

تناوَلَ المجلة المنزوعة الغلاف — بعفويَّة — من الحامل الخشبيِّ بين مَقعدَين. مسَحَ العناوين بنظرةٍ غير متأمِّلة، ثم دسَّ المجلة في الحامل.

شعرتْ أنها تحمل عاطفةً كبيرة نحو هذا الرجل الجالس أمامها، ونظراته شاردةٌ فيما لا تتبيَّنه.

بدا متمهِّلًا بطيئًا، في كلماته وإيماءاته، ويشكو من النهَجَان كلما بذَلَ مجهودًا. فقدَت العينان بريقهما، وأحاطت بهما هالاتٌ سوداء. أطلَّت من فتحتَي الأنف شعيراتٌ بيضاء، وإذا أطبق شفتَيه تهدَّلَ خداه، وإن خلا الوجه من التجاعيد والنُّدوب.

تأكدتْ من تثبيت السلسلة بين ساقَي السُّلَّم الخشبيِّ. اهتزتْ في وقفتها، ثم تماسكتْ بإسناد يدٍ إلى إفريز الشُّرفة، وإمساك اليد الأخرى بالمِنفضة، تحاول أن تُزيل التُّراب عن

الستارة المُسدَلة. مالتْ برأسها إلى الوراء، وأطالَت التأمُّل. لاحظَت الْتصاق الأتربة في ثنايا الستارة. نزعت المشابِكَ من أعلى الشُّرفة، ونزلتْ بالستارة.

أعلَنَ حُزنه لموت شجرة الخوخ في الحديقة: أوصيتُ حارس الشاليه المواجِه لنا أن يعتني بريِّها.

– لم أكُن أنتظر أن تُثمر ... حزني لأنها ماتت تمامًا.

قام من جلسته: هل تُريدين السَّير؟

– أين؟

– خارجَ الشاليه.

– لا أحد على الشاطئ.

اغتصب ابتسامة: لن يخطفنا أحد ... والحرَّاس أكثرُ من الشاليهات.

فتَحَت الباب. لامستْ بشرتها هبَّةُ هواء باردة؛ أغلقَت الباب، وعادت إلى حجرة النَّوم. وضعتْ على رأسها وكتفَيها شالًا من الصُّوف، وخرجت.

اختفى البحر في ظُلمةٍ داكنة، وعمَّق السكون صوتُ توالي الموج على الشاطئ، واصطدامُ أقدامهما باختلاط الرمل والحصى.

لاحَظَ أنهما يستعيدان ذكرياتٍ تحدَّثا عنها في الشاليه؛ فسكتَ. أسلَمَ كلٌّ منهما نفسه إلى عوالم بعيدة وقريبة، وجُزُر يحيا فيها بمفرده، ومع آخرين.

كان السَّير قد استغرقهما تمامًا حين تناهتْ موسيقى خافتة من موضعٍ قريب. أحاط أذنه بيده يُصيخ السمع، ودارت حول نفسها تتبيَّن مصدرَ الصوت.

– الضوء يأتي من هناك.

أسرعتْ خطواتهما — بتلقائية — ناحيةَ الشاليه. الضوء الخافت المتسرِّب من أسفل الباب المغلَق، أتاح لهما مجاوزةَ قِطَع الأخشاب المُتناثِرة فوق الرمال. تناهت الموسيقى من الداخل ممتزجةً بكلماتٍ غير واضحة ونداءاتٍ وضحكات.

تلفَّتَ حوله وهو يُقاوِم لُهاثَ أنفاسه.

– نحن وسكَّان هذا الشاليه وحدنا في المنطقة.

همست: هل نَطرُق الباب؟

القنديل

١

حين لدغتُ القَدَم الواقفة على رمال الشاطئ كنتُ قد تأكدتُ أنها لرَجُل، أعرفها من الخشونة والفلطحة والأصابع الكبيرة وثخانة البشرة، وربما تشقُّق الكعبَين. ألفتُ رؤيتها تدوس على الحصوات الصغيرة، تضغط على الرمال، تُعيق حركةَ الجسد في سحْب الجرَّافة. تهمُّني المتعة، ولا أقصد الإيذاء. تتسلَّل النشوة إلى داخلي. تُرضي القنديلَ الأنثى.

٢

لا أذكُر تمامًا متى بدأَت التحوُّلَ، متى انسحبَت الأنوثةُ؛ فأصبحتْ خُنثى. لكنني كنتُ أتردَّد في لدغ القدَم العارية وهي تخطو على مُلامسة المياه لرمالِ الشاطئ، ربما لدغتُ قدمًا بما يؤذي، ولدغتُ قدَمًا تُشبهها؛ لأُدخل المتعةَ إلى نفسي. بالكاد تصِلُ نظرتي إلى أسفل الساق؛ أخمِّن من حجم القدَم ومَلمَس البشرة؛ إن كان الجسد لأنثى أو ذَكَر؟!

٣

لم أعُد أنثى! لم أعُد خُنثى! الذُّكورة تُناوِش أعماقي. أتأمَّل الأقدام الصغيرة؛ ملساء تخلو من الشَّعر. أُلامِسُها؛ فتُداخلني لذةٌ لا أعرف بواعثها، ولا أقوى على كَتْمها.

٤

لم أعُد أنثى! لم أعُد خنثى! لم أعُد ذكرًا! لماذا قنديل البحر وحده يحيا المراحلَ الثَّلاث؟ يُثيرني الاختلاط والتشتُّت؛ يغيظني. لم تعُد تشغلني القدَم الواقفة على الشاطئ. أراها؛ فألدغها. ألدغها بكلِّ قوَّتي. أُهمل الصَّرخة المتألِّمة، يُجهدني التنقُّل بين الأقدام. ألدغُ القدَم؛ لأنَّها كذلك. أحرِصُ على أن أظلَّ ألدغ، ألدغ!

الأميرة والراعي

أَمَرَت الأميرةُ؛ فأعلن المنادي في الميادين والأسواق: أنَّها ستُوافق على الزواج من الشابِّ الذي يقتل الذئب؛ قتَلَ الذئبُ جدَّتها. حاول قتْلَ الأميرة، لولا أنْ فضَحَه صوتُه، وهو يتخفَّى في زيِّ الجدَّة. كان الراعي يحبُّ طلَّة الأميرة في شُرفة قصرها، وحين ترامى إليه طلَبُ الأميرة؛ سأل نفسه: هل لا بد أن أقتُل الذئبَ؛ لأفوز بقلب الأميرة؟!

لم يعُد الذئبُ يغادر السهلَ إلى المدينة منذ منَحَه الراعي الأمان. أظهَرَ ندَمَه على أفعاله الشريرة، ورجاه أن يجعله حارسًا على غنمه؛ فلا يأكل إلا ما يُعطيه له، ولا يتسلَّل إلى المدينة.

قال الراعي للذئب: وعَدَت الأميرةُ مَن يقتُلك بالزواج منها.

قال الذئب: سيظلُّ لحْمُ الأميرةِ الشهيُّ من نصيبي.

قال الراعي: لكنَّك وَعَدتَني بأن تظلَّ حارسًا للغنم!

قال الذئب: ما تقدِّمه لي من طعامٍ هو لبطني؛ لكنَّ الأميرة حُلم حياتي.

تقلَّصتْ يدُ الراعي على العصا الغليظة. رفَعَ العصا، وهوى بها على رأس الذئب. أثاره العِواء وتناثُر الدم. رفَعَ العصا ثانيةً وهوى بها. ظلَّ يضرب ويضرب؛ حتى تخاذلتْ يده. ألقى بالعصا فوق جثَّة الذئب، ورنا إلى قصر الأميرة في موضعه أعلى الجبل.

الأذان

مضوا — بالصمت السادر — إلى مدخل المدينة. الشوارع خاليةٌ تمامًا. نوافذ البيوت مفتوحة، وإن خلتْ من المُطلِّين وما يَشِي بوجودِ حياة.

سبَقَ الضابط جنوده، وأشار إليهم ليتبعوه.

قبل أن ينطلقوا في الشارع المُفضي إلى قلب المدينة؛ ترامى الأذان من المسجد القريب. تبِعَه توالي الأذان في أماكنَ قريبةٍ وبعيدة. انسَجَم الأذان في تنافُر الأصوات واختلاطها. سَرَت الحياة في الصمت السادر.

تطلَّع الضابط — بعينَين متلفِّتتَين — إلى الأسطح والنوافذ المفتوحة والأبواب والمُدى.

أشار إلى جنوده بالتوقُّف.

سبَقَهم إلى خارج المدينة.

(منقولة — بتصرُّف — من كتاب «جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار».)

الثأر

بلَغَ به الضِّيق منتهاه. الأوامر لا تنتهي، والعقاب لأقلِّ خطأ.

استدعاه، ونسيه في تلاحُق أوامره إلى الأعوان والخدَم. ظلَّ وراءه، ينتظر أن يُنهي أوامره وشخطاته؛ فيفرغ له.

كانت الشمس قد تحوَّلت في السماء، وامتدَّت الظِّلال إلى غير ما كانت عليه.

لاحَظَ أن ظِلَّ الرجل استطال بالقرب منه. الْتفت حوله وهو يرفع قدَمه فوق الظلِّ الساكن.

غالَبَ التردُّد، ثم لَمَس بحذائه طرَف الظلِّ.

الرؤية

١

طالتْ وقفةُ قاضي الإسلام أعلى مئذنة جامع الأزهر. حدَّق في امتدادات الرؤية من حوله: تِلال المقطم وجبل الجيوشي والخُضرة والنيل، والأهرامات الثلاثة تتجاور في نهاية الأفق.

قال الشيخ: لم تثبُت الرؤية!

وسبَقَ المحيطين به في اتجاه السُّلَّم.

٢

عاد قاضي الإسلام إلى وقفته أعلى مئذنة الأزهر، يُحيط به العلماء، أسند جانب راحته على عينَيه، وتأمَّل السماء المطلَّة على مشهد الجبل والخضرة والنهر والأهرامات.

قال وهو يتَّجه إلى السُّلَّم: لم تثبُت الرؤية!

٣

تكرَّرت وقفةُ قاضي الإسلام أعلى المئذنة. أهمل رأي العلماء من حوله بأن يُعلن نهايةَ شهر رمضان. قال إنَّ رؤية الهلال لا بدَّ أن تسبق إعلان قُدوم العيد. هزَّ رأسه لملاحظة العلماء أنَّ الأيام — منذ بداية رمضان — أصبحتْ شُهورًا، فأعوامًا. ظلَّ الشيخ على إصراره بأن يرى الهلال قبل أن يُعلن حلول العيد.

القاضي

شقي القاضي بالمسئولية؛ فأزمع تركها. مال إلى الحياة، مثلَ بقيَّة الناس. يرتدي ما يحلو له من الثياب. لا يتقيَّد بأبَّهة ولا حرَس ولا مواعيد. يتجوَّل في الشوارع. يتأمَّل البنايات. يتحلَّق الرُّواة الشعبيين. يأخذ ممَّن يلتقي بهم ويُعطي.

مضى في الشوراع المحيطة ببيت القاضي. سار مَوكِبه — من قبل — مُحاطًا بالأعوان والجنود. لم يُتَح له تأمُّلُ ما يخلِّفه الموكِب وراءه. أربكتْه النظرة المحدِّقة؛ رمَقَه بها عطَّار في الحمزاوي، أمَرَ بجَلده أمامَ باب الدكَّان؛ لتقاعُسه عن دفْعِ المُكوس.

بذَلَ طريقه إلى شوارع جانبية، ضيِّقة، وأزقَّة.

اقتحمتْه وجوهٌ عرَفَ أصحابها؛ مَثَلوا بين يدَيه، فقضى بالحقِّ، وإن اعتبروا أحكامَه ظالمة. تعدَّدت الوجوه التي تُدين. بدتْ كأنَّها وجهٌ واحدٌ أخلى ملامِحَه لنظرةِ الاتِّهام.

عاد — بخطواتٍ مهرولة — إلى بيت القاضي، في نيَّته أن يلزمه، لا ينزل إلى الطريق إلا وقد أحاط به الجُند؛ فلا يناله بأذًى مَن طالتْه أحكامُه.

الخَواء

ظلَّ الأسد في وقفته فوق التلِّ المُطلِّ على الغابة. تأمَّلَ هُمودَ النيران بعد أن أكلَت الغابةَ تمامًا؛ لا أشجار، ولا أعشاب، ولا جُحور، ولا طيور، ولا حيوانات. الْتهمت النيرانُ كلَّ شيء. أهمَلَ تحذيرَ الفيل بأنَّ إحراقَ الجزء المتمرِّد في الغابة ربما امتدَّ إلى بقيَّة الأجزاء.

قال الأسد في غضبه: مَن يُجاهر بالتمرُّد؛ لا موضعَ له في الغابة.

علَت النيرانُ والصرخات. هبَّت الريحُ من ناحية البحر؛ فكَنَست النيران بعيدًا، حتى أتتْ على الغابة كلِّها. حتى الفيل لم يعُد منه أسفلَ التلِّ سوى هيكلٍ عظميٍّ مُحترِق. هدأت النيران والأصوات ما عدا تطايُر نِثار أوراق الشجر.

أصاخ الأسد سمعَه لأصواتِ الحيوان والطير والكائنات التي تخضع لسطوته، لكنَّ الصمتَ ظلَّ سادرًا.

مضى — بعينين قلقتين — في قلب الغابة المحترقة.

اقتحمه شعورٌ بالعُزلة.

خطأ

نطَقَ الحاجب باسم الوالي؛ فوقَفَ الجميع.

مضى الوالي إلى موقعه في صدارة المكان. حيَّا الحضورَ بإيماءةٍ، ودعاهم إلى الجلوس.

همَّ الوزير بقراءةِ أوراق الوزارة، وأوراق عمَّال الأقاليم؛ أسكَتَه الوالي بإشارةٍ من يده، كانت هي إشارةَ التحرُّك للمتخفِّين وراءَ الستائر المُسدلة. تعدَّدت عرائض الناس وشكاياتهم. زادت؛ فاعتبرَت الواليَ مسئولًا، وهدَّدت بقتْله. خشي الوالي على نفسه، وعلى الحُكْم. طلَبَ من حرَّاسه أن يدخلوا في اللحظة التي يحدِّدها. يصوِّب كلُّ جنديٍّ بندقيته إلى واحدٍ من الجالسين؛ فيقتله.

دخَلَ الجُند بإشارةِ الحاكم، صوَّب كلُّ جنديٍّ بندقيته إلى صدْرِ واحدٍ من رجال الوالي.

لم يُسعف العُمر الواليَ؛ لتبيُّن الجندي الذي أخطأ، فصوَّب إليه رصاصَ بندقيته.

المترو

اجتذبتْني وقفةُ الشابِّ على الإفريز الحجري بين جانب المترو والرصيف. في حوالي العشرين. وجهه مجدور، ونظراته متلفِّتة، يرتدي بنطلونًا من الجينز، وقميصًا أسودَ بنصف كُم، وحذاء كوتشي. المسافة الضيِّقة بين الرصيف ومبنى محطة المعلِّمين تخلو من الواقفين، والمصباح المتدلي من كُشك ناظِر المحطة يُريق ضوءًا خافتًا. يبِين عن فتياتٍ وشبَّان. أدركت أنهم قدموا من مبنى كلية التربية القريب. وقفوا يتأمَّلون رصَّات الصحف والمطبوعات أمام الأكشاك، في الممر الموصل بين طريق المترو والشارع الموازي.

توقعت أن يتحرَّك المترو، فتزلَّ قدمه تحت العجلات الحديدية؛ تركز اهتمامي في عينيَّ تتابعان، وتخشيان ما هو متوقع. الشاب ينقل خطواته بالكاد على الإفريز الحجري، ويستند براحتيه على جانب المترو المغلق.

لم أستطع التخمين فيما إذا كان يشغله السير على الإفريز إلى نهايته، أو أنه يريد أن يقفز من إحدى النوافذ المفتوحة؟

كتمت صيحة لتحرك المترو، فرضت التوقعات نفسها ... لكن الشاب فرد طوله فجأة، في انطلاق المترو ... توالت صفعاته بسرعة على الأجزاء التي طالتها يده من أجساد الجالسين لصق النوافذ.

وكان المترو يزيد من سرعته.

ومضات منسية

ما كاد يصعد درجات السلم، ويميل إلى داخل الأوتوبيس، حتى طالعته في جلستها المنفردة بنظرة طويلة ثابتة، غاب فيها المعنى المحدد.

استعاد وقفته في الرصيف المقابل لمدرسة «نبوية موسى»، تهبه البنت الإشارة، فيلتقيان في ناصية الشارع، ويتجهان إلى حدائق الشلالات، معاكساته من وراء النافذة، ترد عليها البنت في شرفة الطابق الثالث بابتسامة مشجعة. النظرة المحرضة للفتاة على طريق الكورنيش، تدفعه إلى السير بجوارها ومساءلتها الكلام، التهب في داخله حنين وأشواق وخيالات. أبطأت خطواته، توقفت تمامًا. استعاد جرأته القديمة بنظرة تتأمَّل الشعر الأسود المنسدل على الكتفين، والعينين الواسعتين الثابتتَي النظرة والشفتين اللتين تعلوهما ارتعاشة خفيفة.

غابت اللحظة، واختلط الزمان والمكان، ومشاهد قريبة وبعيدة، قبل أن تقف وتخلي موضعها، ترسم على شفتيها بسمة حانية.

– تفضل.

بيت في الضاحية البعيدة

وضع اللفة الورقية والحقيبة القماش على طوبة بجانب الطريق، وأعاد قراءة العنوان في الورقة الصغيرة. أشار إلى الفراغ وهما يتخطيان الحصى المختلطة بالرمال.

كانت الشمس قد تحولت — في أفق البحر — إلى قرص من الحمرة القانية، والبنايات المتناثرة مغلقة النوافذ، أو لم يتم بناؤها. والسكون يعمقه وقع أقدامهما والظلال ترافق خطواتهما المتعبة.

لاحظ تأمُّلها اتساخ الحذاء وأسفل البنطلون: نحن نعوم في بحر رمال!

أضاف: رخص الشقة؛ لأنها في أطراف الإسكندرية.

قالت: المكان مخيف ... لولا البحر لنسبته إلى الصحراء.

قال: المهم أن نجد الشقة.

وقال: المقدم — لعزلة المكان — معقول، والأقساط مريحة.

أعاد تذكر العنوان. أشار إلى انحناءة شارع صغير، على ناصيته سور يحيط بأرض فضاء. حاولت — من تعثرها في حصاة — أن تتساند على جنبه. قامت على تهشم أظافر اليدين. شهقت للرمال المختلطة بعرق صدرها. ظلت واقفة وهو يربت براحته البلوزة المندَّاة.

– أشعر أننا في نهاية المشكلة.

ثم وهو يزيل بطرف إصبعه رمالًا علقت برموشها: حين نوقع العقد، ينتهي كل التعب.

ابتعد — بتلقائية — لَمَّا ترامى صوت نحنحة الحارس الجالس أمام البناية الخالية، زوى حاجبيه في نظرة محملة بالتساؤل والشك.

اتسعت عيناه بالضيق. همس وهو يلتقط الحقيبة القماش: ماذا يظن الرجل؟
دفع إليها باللفة الورقية: هكذا أفضل.
وسبقها.

أغنية للزمن القديم

– من أنت؟

أغمضت عيني لعفوية السؤال. تصورت نفسي الحاجز الأخير، قبل أن يغيب أبي في البحر المسكون بالأسرار والغموض. ناوشتني الأسئلة: كيف؟ ومتى؟ ولماذا؟ الخيوط متشابكة، فيصعب التعرف إلى طرف البداية: حياة أبي في شارع الميدان اتصال بحياة الوكالة منذ أنشأها جدنا الكبير. حدثنا عن بداية تعرفه على الصلاة في أذان مسجد سيدي الشوربجي القريب، تعرِّيه — غصبًا — من لباس الإحرام عندما صحبه جدي إلى الأراضي الحجازية، معرفته أنواع المأكولات والمشروبات على عربات اليد وفي الدكاكين، جولاته — مع أصدقائه — في سوق الخيط وزنقة الستات وسوق المغاربة وحارة اليهود ووكالة الليمون وأرصفة الميناء، صعوده فوق مرصد كوم الناضورة — قبل أن يلحقه الخراب — يطل على المدينة من أعلى موضع فيها، تعلُّمه القراءة في ملصقات الشوارع ولافتات المكاتب والدكاكين، وتعلمه اللغات من التجار الأجانب وبحارة السفن الزائرة، تردده — دون أوراق — على الدائرة الجمركية، بضاعته القليلة — قبل أن تصبح الوكالة على صورتها الحالية — تتسع وتزيد، يتاجر في البن اليمني والبقالة والنقل والعطارة والأقمشة والكليم الأسيوطي والحرير من بلاد الشام.

بدا أنه أجهد نفسه في القراءة. علا صوته بالكلمات، قرأها ثانية، أطال التأمُّل والشرود كأنه يفتش عن المعنى. ثم أعاد الجريدة — في نفاد صبر: اقرأ لي.

كان يهز رأسه في نهاية كل فقرة. وكانت أمي — في وقفتها على باب الشرفة المطلة على الطريق — تخفي بالطرحة المسدلة على جانب وجهها قلقًا وتوترًا. قراءة الصحف أول ما يجلس إليه، حين يصحو من النوم.

قال أبي لسائق سيارة النقل: كم صندوق رنجة تسلمناها؟

قال السائق: هذه رابع مرة تسألني يا حاج!

النسيان مشكلة نلحظها في كلماته وتصرفاته. يجهد نفسه في استدعاء الأسماء، يفتش عن الكلمات المناسبة، يضغط على جبهته بإصبعيه، ويغمض عينيه، يسند وجهه على قبضتيه، ويتوه في الفراغ. ينصت ساكن الحركة كمن لا يتابع. يكتفي بالتطلُّع إلى سقف الحجرة، أو بتأمُّل خطوط التكوينات المرسومة على السجادة. يرمق توالي الأمواج كأنه ينتظر شيئًا في داخلها. يسأل عن النظارة الطبية، أو مفتاح المكتب، أو الجريدة التي لم يعد يقرؤها. ينسى أين أوقف السيارة. وكان يتسلل إلى داخلي شعور بالقلق، أشبه بالومضة ما تلبث أن تختفي.

تدخَّل أخي سامح: من حقه أن يكرر السؤال ... وعليك أن تجيب.

قال السائق: مائتان وأربعون صندوقًا.

أنهى سامح الموقف، لكن القلق ظل في أعيننا. أبي يعيد الملاحظات والأسئلة والقضايا. حتى رؤيته للبحارة المتكلمين بالرطانات الأجنبية، ترددِه على الدائرة الجمركية، لقاءاته بالموردين من الجنسيات المختلفة، جيرته لتجار وباعة مغاربة وتوانسة وشوام وأترك وأروام وطلاينة، ظلوا في شارع الميدان حتى غابت الأسماء من واجهات الشركات والدكاكين.

فقد أبي حذره وهو يكلم المترددين على الوكالة. يعطي نفسه لتجار الحي وباعته. يسأل عن الصحة والأولاد، يناقش ما يبين عن تعرفه إلى شئون حياتهم. الزبائن الطياري — تسمية ورثناها عنه — تقتصر أحاديثه معهم على العمل وحده. خذ وهات! لا فصال ولا مساومات، ولا تأجيل في الدفع أو أقساط. لم يعد يفرق بين من اعتادوا التردد على الوكالة، ومن قدموا إليها للمرة الأولى، بين الأصدقاء والزوار الذين لم يرهم من قبل. السحن المألوفة والتي شحبت ملامحها في الغيم. يستقبل الجميع بالحفاوة نفسها. يطلب الساخن والبارد. يعرض حمل البضاعة، حتى في غياب الثمن المطلوب.

أطال الوقوف أمام تمثال الراقصة الإسبانية ترتدي ثوبًا أحمر وحذاءً أسود ذا كعب عال. أظهر الفرحة وهو يميل مع ما يتصوره رقصة للمرأة: هكذا هكذا ترقص ... هكذا ترفع يدها ... هكذا تميل بجسدها.

يعاني الحكم على الأشياء. يمتد إصبعاه — بعفوية — إلى شفته السفلى. يمطها فتظهر لثته. يتصور الحركة في الثبات، وتسابيح ما قبل الفجر في الشوربجي خناقة يطلب فضها،

والغسيل المتطاير في المناشر طيورًا ينتظر تحليقها. تختلط السلمات من تحته، فيخشى أن تزل قدمه. تتناغم دندنته مع أصوات احتكاك دقات صحن العطارة في سوق الترك القريب. أرقبه فأهمل الكثير مما يقوله. أتابع تصرفاته، وحركات يديه وعينيه، وتعبيرات وجهه. يبدأ الجملة، ولا يتمُّها، أو يعاني تلاحق الكلمات، فهي دمدمة غير مترابطة. يغيب اتصال المعنى، فأحدس ما يريد قوله. يشتم — بصوت مرتفع — شخصًا لا نراه. يطلق «أف» مفاجئة تغيب أسبابها.

قال سامح: لاحظت أن الأمور تشوشت في ذهن أبي منذ بدأ جلوسه إلى أصدقائه الجدد في قهوة المنشية.

قلت: إنهم أصدقاء قدامى.

قالت أمي: ولماذا تتركونه يجلس إليهم؟

قال سامح: من يعلق الجرس في رقبة القط؟

أضاف موضحًا: يصعب على أحد أن ينصح أبي بما يجب أن يفعله.

قالت أمي: من هؤلاء الناس؟ ... كيف عرفهم؟

قال سامح: تجار ... عادوا إلى الإسكندرية بعد هجرة أعوام طويلة ... اجتذبوه باستعادة الذكريات القديمة.

طلب سامح أن ألزم أبي في داخل المكتب، أصحبه، أقود السيارة إن أراد العودة إلى البيت، أو إلى القهوة. لا أتدخل إلا إذا طلب أبي ما ينبغي تنفيذه. أكتفي بالمحاضرات المهمة. أنطلق بالسيارة في طريق الكورنيش. أميل من النصب التذكاري إلى ميدان المنشية. أبطئ في زحام شارع الميدان، أو أترك السيارة قبالة سراي الحقانية، وأخترق الزحام إلى مبنى الوكالة.

أهملت ما كنت أعده فور تخرجي: إضافة استيراد معدات كهربائية وإلكترونية إلى عمل الوكالة. لزمت أبي حتى يقبل التردد على الأطباء، فتصل تعليماتهم إلى بر نطمئن إليه.

خبط فخذه بكفه: أنا لا أشكو شيئًا!

قال سامح: التردد على الطبيب لا يعني أنك مريض ... ربما كتب لك مقويات تساعد على التذكر.

وهو يشيح بيده: ذاكرتي حديد!

قال لي سامح: أنت آخر العنقود ... أبي يرتاح إلى مجلسك.

لم أجد في طلب سامح ما يضايقني. أحب الجلوس إلى أبي، وسماع الحكايات القديمة. كنت أكتفي باحتساء الشاي، والتطلع إلى حركة الميدان. لا أشارك في المناقشات، ولا أبدي اهتمامًا بما كان أبي يهبه سمعه. يستعيدون ذكريات بعيدة. لقاءاتهم في قهوة النجعاوي بسوق المغاربة. أهازيج السحر أعلى مئذنة أبي العباس. قراءة البردة في صحن البوصيري. تواشيح رمضان والموالد وحلقات الذكر وخيام الصوفية وأكشاك الختان والمتصوفة والمجاذيب والنقرزان وسوق العيد والرفاعية وملاءات اللف. معارك الفتوات، وسباق البنز والقوارب. خرجت مظاهرات طلبة المعهد الديني بالمسافرخانة، تهتف ضد الإنجليز والملك وأحزاب المعارضة، واكتفت البلانسات بنشر الأشرعة إلى نهاياتها، وركب الرجال عربة الترام الوحيدة من الباب الأخضر في اتجاه ميدان كرموز، وتتابعت إضاءة عفريت الليل لمصابيح الغاز، وتضوعت المجامر بعبق البخور، وفعلت بركات الأولياء ومكاشفاتهم ما لا يخطر بالعقول، وعادت الكتاتيب إلى صيتها القديم، وارتفعت ألحان كان أبي يدير بها جهاز الفونوغراف، وتبادلت الصحبة — داخل مجيرة عم عباس — أنفاس الحشيش (في ليلة أم كلثوم)، وتمايلت الرءوس بالطرب، وتمطت أيام الهدوء والسكينة والعشرة، ودارت رقصات أولاد عبد السلام حتى أتعبتني، وتطوحت الرءوس والأكتاف على إيقاع أحزاب الشاذلي وأوراده، ومضت جياد سراي رأس التين في جولتها الصباحية، وتقدم الأفندية الجنازات من جامع الشيخ إلى مقابر العامود، وتوسط قوس قزح أفق المينا الشرقية.

أُسلم عيني إلى اتساع الميدان بزحامه وباعته والنوافذ الخشبية الواسعة، ولافتات الشرفات والدكاكين، وأطباق الفضائيات فوق الأسطح والطائرات الورقية في مساحة السماء بين البنايات، والشمس وهي تصعد على واجهات البيوت المقابلة، ثم تنحسر عنها، حتى تغيب تمامًا. تحل رمادية شاحبة، تلحقها الظلمة. أتنبه على همسات يصيخ لها أبي سمعه. يلمح اتجاه عيني فيشيح بيده: نحن نتكلم فيما لا شأن لك به.

إذا فاجأني سؤال، أشير إلى أبي، فيرد بدلًا مني. ثمة حاجز غير مرئي نشأ بيني وبينهم، منذ صحبت أبي إلى المقهى. أهمل عبارات الود، والدعوات الملحة بمشاريب. تظل عيناي في اتجاههما إلى الطريق.

أربط — في البيت — بين الهمهمات التي تنتزع أبي من شروده، البسمة حين تتخلل التجاعيد حول الفم والعينين، الضحكة العالية ما يلبث أن يكتمها، ليتأكد إن كان قد سمعه أحد.

نطق التأثر في وجه أخي شبل، وإن لم يفاجئه ما حدث. كان قد عاد من بورسعيد، بعد أن تسلم بضاعة في الميناء. أقبل على أبي بملامح مهللة، فاصطدم بالشرود. التمعت عيناه بدهشة متسائلة: هل يمكن؟

النظرة المتسائلة أصطدم بها — دون أن يلحقها كلام — حين يمضي أحد أخوتي يومين أو أكثر خارج الإسكندرية. أزمعت أمي ألا تترك البيت بعد أن أمضت ثلاثة أيام عند خالتي في الإبراهيمية. فاجأتها النظرة الشاردة المتسائلة.

قال شبل: أنت الوحيد الذي يصادقه أبي لأنك لا تفارقه!

لزمت الصمت، فلم أنطق بعنوان الوكالة. شدد سامح، فأنا أصحب أبي إذا كان أخواي في أعمال خارج الإسكندرية، وأراد أن يذهب إلى الشركة، أو يعود منها. فضل التمشي من البيت أو سعد زغلول إلى شارع الميدان. عشرته قديمة لتجار الشارع يعرفه المترددون على الوكالات والدكاكين والباعة ورواد المقاهي والمصلون في جامع الشوربجي. يُظهر الغضب لنصيحة أمي أن يكتفي بالتليفون وسيلة للاطمئنان على سير العمل، وأن الراحة هي ما يطلبه.

بدا على أبي أنه نسي الوكالة، أجهد نفسه في التذكر. تدلت شفته السفلى، ولجأ إلى تعبيرات الوجه واليدين. لم أستطع التخمين ما إذا كان ينوي الذهاب إلى أبو العباس للصلاة وزيارة المقام — وهو ما تحدث عنه في الليلة السابقة — أم أنه يريد العودة إلى البيت.

نادى على تاكسي: عد إلى البيت.

– أين هو؟

ضرب جبهته براحته. غلبه الارتباك، فذكرت العنوان.

فضل أبي أن نترك السيارة في الموقف، ونعود — سيرًا — إلى البيت. الدنيا ليل، وبدايات الخريف تحمل نسائم رطبة. حركة المرور قلت، ومعظم المحال أغلقت أبوابها. ظل أبي صامتًا، كأنه مشغول بشيء لا أعرفه.

قبل أن نميل من المنشية إلى سعد زغلول، توقف أبي عن السير. أعاد تأمُّل المكان كأنه يراه للمرة الأولى. بدت المشاعر في داخله خرساء، لا يقوى على التعبير عنها. أغمض عينيه ليفرض التركيز. ثم مال بأعلى صدره ناحيتي. حدق في تطلعي المرتبك، الساكن: من أنت؟

هنـــداوي